

حُلْدَةُ الْمَادِيَّةِ



فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

أخبار اليوم

رئيس مجلس الإداره : إبراهيم سعده

تصميم الغلاف : خالد عبد الرازق

الفصل الأول :

أسباب الوجوه

الله سبحانه وتعالى وضع في كونه
كله آيات تنطق بوجوده ، وتنطق
بعظمته ، وتنطق بأنه هو
الخالق .. الجبار يشهد أن لا
إله إلا الله .. والنبات يشهد أن لا
إله إلا الله .. والحيوان يشهد أن
لا إله إلا الله .. والإنسان يشهد
أن لا إله إلا الله .. وكل هذا يشهد
بأدلة ناطقة لا تحتاج حتى إلى
مجرد البحث والتفكير والعمق .

ولقد خاطب الله سبحانه وتعالى كل العقول في كل الأزمان ، فجعل هذه الأدلة التي تنطق بوجوده من أول الخلق .. ثم كلما تقدم الإنسان ، وارتقى الحضارة .. وكشف الله من علمه ما يشاء لمن يشاء .. ازدادت القضية رسوحاً وازدادت الآيات وضوحاً .. ذلك أن الله شاء عده أن يخاطب كل العقول .. فجاءت آيات الله في الكون الناطقة بالوهبيته وحده ليفهمها العقل البسيط ، والعقل المرتفع في الكون .. ولا اعتقاد أن أحداً يستطيع أن يجادل في هذه الأدلة ولا أن ينكر وجودها .

ولقد أوجد الله سبحانه وتعالى في هذا الكون أدلة مادية وأدلة عقلية وأدلة نصل إليها بالحواس .. كلها تنطق بوحدانية الله ووجوده .

ولقد جعل الله الأدلة الأولى لإدراك وجوده هي العقل .. العقل هو الذي يدرك وجود الله .. بالدليل العقلي الذي وضعه الخالق في الكون .. ولكن مهمة العقل بالنسبة لهذا الوجود محدودة .. ذلك أننا بالعقل ندرك أن هناك خالقاً مبدعاً قادراً .. ولكننا بالعقل لا نستطيع أن ندرك ماذا يريد الخالق منا .. وكيف نعبده .. وكيف نشكره .. وماذا أعد لنا من جراء .. يثيب به من أطاعه ، ويعاقب به من عصاه .. فهذا كله فوق قدرة العقل .

ولذلك كان لابد أن يرسل الله الرسول ليبلغونا عن الله .. لماذا خلق الله هذا الكون .. ولماذا خلقنا .. وما هو منهج الحياة الذي رسمه لنا لنتبعه .. وماذا أعد لنا من ثواب وعقاب ؟ . فتلك مهمة فوق قدرات عقولنا ، وتلك مهمة لو استخدمنا فيها العقل لما وصلنا إلى شيء .

وجاء الرسول ومعهم العجائب من الله بصدق رسالاتهم ومعهم المنهج .. وقاموا بإبلاغ الناس .. ولكننا لنتحدث هنا عن عجائب الرسول .. وعما جاءوا به .. وإن نتكلم عن أي شيء غبي .

ولكننا سنتحدث عن الماديات وحدها .. ونتكلم عن الأدلة المادية ، بما فيها تلك الأدلة التي تربينا فتتجعلنا نؤمن أن الغيب موجود .. وأن ما لا نراه يعيش حولنا .. كل هذا بالعقل وليس بالإيمان.

فالله سبحانه وتعالى وضع الدليل الإيمانى في الكون كما وضع الدليل العقلى .. ولكننا سنحتمل للعقل وحده .. ليرى الناس جميعاً أن الاحتكام للعقل يعطينا آلاف الأدلة .

هذه الأدلة هي من آيات الله ، وكلها تشهد أنه لا إله إلا الله ..

الوجود .. والانسان

وإذا أردنا أن نبدأ بالأدلة المادية فلابد أن نبدأ بالخلق .. ذلك الدليل الذي نراه جميعاً أمام عيننا ليلاً ونهاراً .. ونلمسه لأننا نعيشه .. فالبداية هي أن هذا الكون بكل ما فيه قد وجد أولاً قبل أن يخلق الإنسان .. و تلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها .. فلا أحد يستطيع أن يقول إن خلق السموات والأرض تم بعد خلق الإنسان .. بمعنى أن الإنسان جاء ولم تكن هناك أرض يعيش عليها .. ولا شمس تشرق .. ولا ليل ولا نهار .. ولا هواء يتنفسه .. بل إن الإنسان جاء وكل شيء قد أعد له قبل أن يأتي، وقبل أن يوجد، وليس فقط أن كل شيء قد أعد له .. بل إن هناك أشياء أكبر من قدرة الإنسان خلقت وسخرت لخدمه وتعطيه كل متطلبات الحياة بدون مقابل .. وأشياء أخرى خلقت وسخرت للإنسان تعطيه ما يشاء ولكنها محتاجة إلى جهد الإنسان وعمله ، وذلك حتى تتم عمارة الأرض، إذن فباستخدام العقل وحده لا أحد يستطيع أن يجادل في أن هذا الكون قد خلق وأعد لحياة الإنسان قبل أن يخلق الإنسان نفسه .. فإذا

جاء الحق سبحانه وتعالى وقال لنا :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ كُلَّمَا تَمَّ أَمْسَأَتِ إِلَيْهِ
الشَّمَاءَ فَسَوَّنَهُنَّ سَيْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يُكَلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴾ (٢٩)

(الآية ٢٩ من سورة البقرة)

لا يستطيع أحد أن يجادل عقلياً في هذه القضية .. لأن الكون تم خلقه قبل خلق الإنسان .. فكيف يكون للإنسان عمل قبل أن يوجد ويخلق ؟.

وتأتي الآية الكريمة :

﴿ وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيقَةً ﴾

(من الآية ٢٠ من سورة البقرة)

نقول: إن هذا يؤكد الحقيقة بأن الكون أعد للإنسان قبل أن يخلق .. وهذه قضية يؤكدها العقل .. ولا يستطيع أن يجادل فيها.

وبذلك تكون قد وصلنا إلى النقطة الأولى ، وهي أن الله سبحانه وتعالى بكمال صفاته وقدراته قد خلق هذا الكون وأوجده ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه .. ولا تحتاج لأحد من عباده .. وأننا نحن جميعاً - أى البشر - قد جئنا إلى كون معد لنا إعداداً كاملاً.

ولكن قدرة هذا الكون لا تخضع لنا ولا لقدراتنا .. بل هي أكبر من هذه القدرات بكثير، فالشمس مثلاً أقوى من قدرة البشر جميعاً .. وكذلك الأرض والبحار والجبال .. إذن فلابد أن تكون هذه الأشياء قد أخضعت لنا بقدرة من خلقها وليس بقدرتنا نحن .. ذلك أنها مسخرة لنا لا تستطيع أن تعصى أمراً .. فلا الشمس تستطيع أن تشرق يوماً وتغيب يوماً حسب هواها لتعطى الدفء ووسائل استمرار الحياة لمن تريده .. وتنمّعه عن تشاء .. ولا الهواء يستطيع أن يهب يوماً ويتسوق يوماً .. ولا المطر

يستطيع أن يمتنع عن الأرض فتتعدم الحياة وبهلك الناس .. ولا الأرض تستطيع أن تمتنع عن إنبات الزرع .. لا شيء من هذا يمكن أن يحدث .. ولا تستطيع البشرية كلها أن تدعى أن لها دخلاً في مهمة هذا الكون .. لأنه لا خلق هذه الأشياء ولا استمرارها في عطائهما يخضع لإرادة البشر. فإذا جئنا إلى الإنسان وجئناه هو الآخر لابد أن يشهد بأن له خالقاً موجوداً .. فلا يوجد من يستطيع أن يدعى أنه خلق إنساناً .. ولا من يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه.

قضية الخلق محسومة

إذن فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى لا يقبل فيها جدل عقلى .. فإذا جاء بعض الناس وقالوا: إن هذا الكون خلق بالصادفة .. نقول: إن الصادفة لا تتشيّن نظاماً دقيقاً كنظام الكون .. لا يختل رغم مرور ملايين السنين.

وإذا جاء بعض العلماء يدعى أنه كانت هناك ذرات ساكنة ثم تحركت وتكتفت واتحدت .. نقول من الذي أوجد هذه الذرات .. ومن الذي حركها من السكون؟ . وإذا قيل إن الحياة بدأت بخلية واحدة في الماء نتيجة تفاعلات كيماوية .. نقول من الذي أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية؟

ونحن لن ندخل مع هؤلاء في جدل عقيم .. وإنما نقول لهم: إن من إعجاز الخالق .. أنه أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا .. وأنبأنا أكثر من ذلك أن هؤلاء يضللون .. أى ليسوا على حق ، ولكنهم على ضلال .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا أَنْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ
مُّتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْدًا﴾

(من الآية ٥١ من سورة الكهف)

وهكذا نرى من يأتى ليضل الناس بنظريات كاذبة عن أصل خلق السموات والأرض .. وأصل خلق الإنسان .. ومن يدعى أن أصل الإنسان قرد .. وهى نظرية يملؤها الغباء .. فنحن لم نشهد قرداً تحول لإنسان .. وإذا كان أصل الإنسان قرداً .. فلماذا بقيت القرود على حالها حتى الآن ولم تتحول إلى بشر؟! ومن الذى منعها أن يحدث لها هذا التحول ما دام قد حدث فى الماضى؟! ولقد نسى هؤلاء أن الوجود لابد أن يكون من ذكر وأنثى وإلا انقرض النوع .. وهؤلاء لم يقولوا لنا عندما ادعوا أن قرداً تحول إلى إنسان .. من أين جاء القرد الذى تحول إلى امرأة ليتم التكاثر ..

ويبدون الدخول فى جدل لا يفيد .. نقول لهؤلاء جمیعاً: لقد جئتم مثبتين للإيمان ومثبتين لكلام الله .. فلو أنه لم يأت من يضل بنظريات كاذبة فى خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان .. لقلنا: إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى القرآن الكريم .. أنه سيأتى من يضل فى خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان ، ولكن لم يأت أحد يفعل ذلك .. ولكن كونهم جاءوا وكونهم أضلوا .. يجعلنا نقول : سبحان ربنا .. لقد أخبرنا عن المضللين وجاءوا فعلاً بعد قرون كثيرة من نزول القرآن .. فكأن هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا قضية الإيمان .. قد أثبتوها وأقاموا الدليل عليها .

على أنتا نقول لكل من جاء ب الحديث عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان مدعياً أن الله ليس هو الخالق .. نقول له: أشهدت الخلق؟ .. فإذا قال: لا .. نسأله : ففيما تجادل؟

على أن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى لأنه هو وحده سبحانه الذي قال إنه خلق .. ولم يأت أحد ولن يجرؤ أحد على أن يدعى أنه الخالق ..

وإذا كان من يفعل شيئاً يحرص على الإعلان عما فعل .. فلا يوجد شيء صغير اخترعه البشر في الدنيا .. إلا وحرص صاحبه على الإعلان عن نفسه.

الله وحده الخالق

فإذا كان ذلك الذي اخترع المصباح قد حرص على أن يعرف العالم كله اسمه وتاريخه وقصة اختراعه .. أيكون الذي أوجد الشمس غافلاً عن أن يخبرنا أنه هو الذي خلقها .. وإذا كانت هناك قوة أخرى قد أوجدت أفالاً تعلن عن نفسها؟

إذن فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى .. لأنه وحده سبحانه الذي قال إنه خلق .. حتى يأتي من يدعى الخلق .. ولن يأتي .. فإن الله سبحانه هو وحده الخالق بلا جدال .. وحتى الكفار لم يستطعوا أن يجادلوا في هذه القضية .. ولذلك يأتي القرآن في سورة العنكبوت فيقول :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّ بِهِ كُوْنَ ﴾ (٦١)

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَا مَأْتَ فَأَخْيَا بِهِ أَنَّا رَضَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(جزء من الآية ٦٣ من سورة العنكبوت)

وهذه الآيات نزلت في الكافرين والمركبين .. وهم رغم كفرهم واشراكهم لم يستطعوا أن يجادلوا في خلق الكون والإنسان . إذن فقضية الخلق محسومة لله .. لأن سبحانه وتعالى هو الذي خلق .. وهو الذي أخبرنا بأنه هو الذي خلق .

ولكن القضية لا تقف عند الكون وحده .. بل تمتد إلى كل ما في الدنيا، حتى تلك الأشياء التي يقدر عليها الإنسان .. فنصل الوجود كله .. بكل ما فيه من خلق الله سبحانه وتعالى .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ذَلِكُمْ أَنَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَّكِيلٌ ﴾

(الآية ١٠٢ من سورة الأنعام)

ومadam الحق سبحانه وتعالى قد قال : أنه (خالق كل شئ) فما من شئ في هذا الوجود إلا هو خالقه .

ولنأخذ هذه القضية في كل ما حولنا .. في كل ما في هذا الكون .. لنأخذ مثلاً الخشب .. شجرة الخشب التي تعطينا كل الأخشاب التي نستعملها في بيوتنا وأثاثنا إلى غير ذلك .. هذه الشجرة من أين جاءت ؟ .. تسأل تاجر الخشب من أين جاءت ؟ .. يقول من السويد .. وتسأل أهل السويد يقولون من الغابة .. وتذهب إلى الغابة فيقولون لك من شتلات

نعدها .. وتسأله من أين جاءت هذه الشتلات ؟ .. من جيل سابق من الأشجار .. والجيل السابق من جيل سبقه .. وتظل تمضي حتى تصل إلى الشجرة الأولى التي أخذ منها هذا كله .. من الذي أوجد الشجرة الأولى ؟ .. إن الله .. فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من عدم ..

فإذا انتقلنا إلى باقي أنواع الزرع لنبحث عن التفاحة الأولى والبرتقالة الأولى .. والتمرة الأولى .. وحبة القمح الأولى .. وشجرة القطن الأولى .. نجد أنها وغيرها من كل ما تنتجه الأرض .. كلها من خلق الله خلقاً مباشراً .. ثم بعد ذلك استمر وجودها بالأسباب التي خلقها الله في الكون .. قد يقال : إن هناك تهجيناً وتحسيناً وخلطاً بين الأنواع لتنتج نوعاً أكثر جودة .. نقول : إن هذا كله لا ينفي أن التمرة الأولى مخلوقة خلقاً مباشراً من الله .. وقد يدعى بعض العلماء أنهم حسنوها أو استبطنوا أنواعاً جديدة .. نقول لهم : كل هذا لا ينفي أن الوجود الأول من الله .. وأنهم استخدموها ما خلق الله بالعلم المتأخر من الله في كل ما فعلوه .. ولكن أحداً لا يستطيع أن يدعى أنه أوجد أي شئ في الأرض من عدم .. فكل هذه الاكتشافات العلمية هي من موجود .. ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من عدم ..

وإذا انتقلنا من النبات إلى الحيوان .. نجد أن كل الحيوانات والطيور والحشرات بدأت بخلق من الله سبحانه وتعالى .. وبخلق من ذكر وأنثى .. وهذه هي بداية الخلق جمِيعاً .. ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه خلق من عدم ذكراً وأنثى من أي نوع من النبات أو الحيوان .. والله سبحانه وتعالى يلفتنا في القرآن الكريم فيقول :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا وَجَنَّ لَعْلَكُمْ نَذَكَرُونَ ﴾ (٦١)

(من الآية ٤٩ من سورة الزاريات)

الله يتحدى علماء الدنيا

إننا نريدهم - ونحن نتحدى علماء الدنيا كلها - أن يأتي عالم فيقول لنا إنه أوجد من عدم .. أو أنه خلق ذكراً وأنثى من أي شيء موجود في هذا الكون .. وما أكثر الموجودات في كون الله .. وهذا تأكيد الحقيقة القرآنية تتحدى في قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَإِنَّمَا تَعْمَلُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ أَجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَإِنْ يَسْلِمُوا إِذْكَارَ شَيْءٍ أَلَا يَسْتَقْدِدُونَ مِنْهُ ضَعْفَ الظَّالِمِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (٧٣)

(الآية ٧٣ من سورة الحج)

هذا هو التحدي الإلهي الذي سيبيقى قائماً حتى يوم القيمة .. فلن يستطيع علماء الدنيا ولو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابة .

ولقد وصل الإنسان إلى القمر ، وقد يصل إلى المريخ ، وقد يتجاوز ذلك ولكنه سيظل عاجزاً عن خلق ذبابة مهما كشف الله له من العلم .. فلن يعطيه القدرة على خلق ذبابة .. وهذا من إعجاز الله .. لأنه وحده الذي خلق كل شيء، والعلم كاشف لقدرات الله في الأرض ، ولكنه ليس موجوداً لشيء .. ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ ذَلِكُمْ أَنَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَوَكِيلٌ ﴾ (١٠٢)

(من الآية ١٠٢ من سورة الانعام)

بهذا تكون قد أثبتنا بالدليل العقلي أن الله خالق كل شيء في الدنيا ..
فإذا كان الله قد خلق من هم من دون الإنسان من نبات وجماد وحيوان
فكيف بالإنسان بما له من إدراكات وعقل وفكرة وتمييز .. سنتحدث عنه
تفصيلا في فصل قادم .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ عَيْنَتِهِ أَمْ هُمُ الْخَلِقُونَ﴾ (٢٥)

(الآية ٢٥ من سورة الطور)

وإذا كان كل شيء في هذا الكون من خلق الله سبحانه وتعالى .. فإن
قوانين الكون أيضا .. تلك القوانين التي يسير عليها الكون هي من وضع
الله سبحانه وتعالى .. إلا ما شاء الله أن يجعل للإنسان فيه اختيارا ..
فالقوانين التي يمضي عليها الكون هي من وضع الله .. والأسباب التي تتم
بها الأشياء هي من وضع الله .. فالشمس والقمر والنجوم والارض لا تتبع
قوانين البشر .. بل تتبع القانون الإلهي .. والذي خلقها وضع لها القانون
الأمثل لتقدي مهمتها في الكون ..

فالشمس لها حركة كونية .. ولها تحرك آخر في فلك خلقه الله لها ..
وكذلك القمر ، وكذلك الأرض .. وكذلك الرياح وكذلك النجوم .. ولذلك يقول
الحق سبحانه وتعالى :

﴿الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْبَاءَنَ خَلَقَ الْإِنْسَنَ
عَلَمَهُ الْبَيَانَ الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ سَجْدَانٌ وَالسَّمَاءُ رَفِعَهَا وَرَضَعَ الْمِيزَانَ﴾

(الآيات من ١ إلى ٧ من سورة الرحمن)

إذن الشمس والقمر والنجوم تتحرك بحساب دقيق فلا تتأخر الشمس

عن موعد شروقها ثانية ولا تتقدم ثانية منذ ملايين السنين.. وكذلك القمر في دورته الشهرية.. وكذلك النجوم في حركتها.. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَا إِلَهَ مِنْ يَنْبَغِي لَهَا إِنْ تُدْرِكَ الْقَمَرُ وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَلَكُلُّ فِي فَلَكِ يَسْبَحُونَ ﴾ (١٠)

(الآية ١٠ من سورة يس)

أى أن كل هذه الأجرام لها فلك معين أو مسار معين تمضي فيه بياذن الله.. ولا تستطيع البشرية كلها أن تؤخر شروق الشمس ثانية، أو أن تقدمها ثانية.. أو أن توقف دوران الأرض أو تسرع بها أو تبطئه إلى غير ذلك.

إذن فثبتات قوانين الكون دليل على دقة الخالق وإبداعه وعظمته وقدرته.. وهذا مالا يستطيع أحد أن ينكره.

الثابت والمتغير

يأتى الفلسفه ليقولوا: إن الثبات وحده لا يعطى القدرة الكاملة للحق سبحانه وتعالى .. ذلك أن الإله بقدراته لابد أن يستطيع أن يخرج عن ميكانيكيته .. فذلك هو دوام القدرة أو طلاقة القدرة .. أما بقاء الثابت على ثباته .. فإن ذلك قد يعطى الدليل على دقة القدرة وإبداع الخالق .. ولكنه لا يعطى الدليل على طلاقة القدرة ..

نقول : إن الله قد أعطى فى كونه الدليل على طلاقة القدرة .. ولكنه لم يعطه فى القوانين الكونية .. لأنه لو أعطاه فى القوانين الكونية فاشرقت

الشمس يوماً ، وغابت أياماً .. ودارت الأرض ساعات وتوقفت ساعات .. وتغير مسار النجوم لفسد الكون .. إذن فمن كمال الخلق أن تكون القوانين الكونية بالنسبة للنظام الأساسي للكون ثابتة لا تتغير ، وإلا ضاء النظام ، وضاء معه الكون كله .. فلا يقول أحد إن ثبات النظام الكوني يحمل معه الدليل على عدم طلاقة القدرة .. بل هو يحمل الدليل على طلاقة القدرة التي تبقى هذا النظام ليصلح الكون .

ولله سبحانه وتعالى لا يريد كوناً فاسداً في نظامه .. ولكنه يريد كوناً يتناسب مع عظمة الخالق وقدرته وإبداعه .. فيبقى بطلاقته قدرته الثبات في قوانين هذا الكون .. ويظهر بطلاقته قدرته أنه قادر على أن يغير ، ويخرج في النوميس بما لا يفسد الحياة في الكون .. ولكن بما يلتف خلقه إلى طلاقة قدرته .

ولنتحدث قليلاً عن طلاقة قدرة الله في كونه .. أول مظاهر طلاقة القدرة هي المعجزات التي أيد بها الله رسلاً وأنبياء .. ولكننا لن نتحدث عنها هنا .. فنحن مع العقل وحده .. لنؤكد بالدليل العقلي أن كل ما في هذا الكون يؤكد أنه لا إله إلا الله .. وأنه هو الخالق والموجد .. ناتي إلى الأشياء التي تنطق بطلاقته القدرة وهي في كل شيء .. وإذا جاز لنا أن نبدأ بالإنسان فإننا نبدأ بعياله الإنسان أولاً .. الإنسان ككل شيء في هذا الكون يوجد من ذكر وأنثى .. فإذا اجتمع الذكر والأنثى جاء الولد .. هذا هو قانون الأسباب .. في يأتي الله سبحانه وتعالى ويلتقى الذكر والأنثى ولا يأتى الولد .. مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى:

هُنَّ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ
إِنَّهُ أَنَّا وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذِكْرُ ١١ أَرْتُرُو جَهَنَّمَ ذَكْرًا نَّا وَإِنَّهُ
وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ١٢

(الآياتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الشورى)

إذن الله سبحانه وتعالى جعل في قوانين الأسباب أنه متى تزوج الذكر والأنثى يأتي الولد .. ولكن أبقى لنفسه سبحانه طلاقة القدرة فجعل هناك ذكرًا وأنثى يتزوجان أعواماً طويلاً ولا يرزقان بالولد .. فمع قوانين الأسباب كانت هناك طلاقة القدرة .. ولم يجعلها الله سبحانه وتعالى عامة الأسباب بل جعلها في أمثلة قليلة لتلفتنا إلى طلاقة قدرته .. حتى لا نحسب أننا نعيش بالأسباب وحدها .

طلاقة القدرة في الكون ..

ولم تقف طلاقة قدرة الله في خلق الإنسان عند هذا الحد .. بل امتدت لتشمل كل أوجه الخلق .. فالاصل في الإيجاد من ذكر وأنثى .. ولكن الله سبحانه وتعالى بطلاقته قدرته خلق إنساناً بدون ذكر أو أنثى وهو آدم عليه السلام .. وخلق من ذكر بدون أنثى وهي حواء .. خلقها من ضلع من آدم عليه السلام .. وخلق إنساناً من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه السلام .. وهذه كلها حدثت مرة واحدة لإثبات طلاقة القدرة .. وهي لا تتكرر .. لأنها تلفتنا إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. وأنه ليس على قدرته قيود ولا حدود .. فهو جل جلاله خالق الأسباب .. وقدرته تبارك وتعالى فوق الأسباب .. على أن هناك أشياء كثيرة عن طلاقة قدرة الله بالنسبة للإنسان سنتحدث عنها تفصيلاً في فصل قادم .

ناتى إلى طلاقة قدرة الله تعالى في ظواهر الكون .. لو أخذنا المطر مثلا .. الله سبحانه وتعالى بأسباب كونه جعل مناطق ممطرة في الكون .. ومناطق لا ينزل فيها المطر .. والعلماء كشف الله لهم من علمه ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة وغير المطرة .

يأتى الله سبحانه وتعالى في لفته إلى طلاقة قدرته .. فتجد المناطق الممطرة لا تنزل فيها قطرة ماء وتصاب بالجدب ، وبهلك الزرع والحيوان ، وقد يموت الإنسان عطشاً .. بالرغم من أن هذه المناطق كان المطر ينزل فيها وربما سار في أنهار ليرى غيرها من البلاد التي لا ينزل فيها المطر . فتجد مثلا منابع النيل التي هي مناطق غزيرة المطر .. تأتى فيها سنوات جدب فلا يجد الناس الماء .. ونجد بلاداً كالولايات المتحدة وبلاد أوروبا يصيّبها الجدب في سنوات .. ولا يحدث هذا بشكل مستمر .. بل في سنوات متباعدة .. لو أن هذا المطر ينزل بالأسباب وحدها ما وقع هذا الجدب في المناطق غزيرة المطر .. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته وإلى أن الماء الذي ينزل من السماء ليس خاضعاً للأسباب وحدها .. ولكن الذي يحكمه هو طلاقة قدرة الله .. حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملكتها بالأسباب .. ولكن نعرف أن هناك طلاقة لقدرة الله سبحانه وتعالى هي التي تعطى وتمتنع .. وأنه جل جلاله فوق الأسباب وهو سبحانه المسّبب بغير وبيدل كما يشاء .

فإذا جتنا إلى الزرع .. ذلك الذي فيه عمل للإنسان .. نجد مظاهر طلاقة القدرة .. فالإنسان يزرع الزرع والله يعطيه كل الأسباب .. الماء موجود والكيماويات متوافرة .. والارض جيدة .. ثم بعد ذلك تأتى آفة لا يعرف أحد عنها شيئاً ، ولا يحسب حسابها ، فتقضي على هذا الزرع

تماماً .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَجْيَطَ شَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ
عَلَى عَرُوشَهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ فِرَقَيْنِ أَحَدًا﴾

(الآية ٤٢ من سورة الكهف)

ونحن نعرف أن الآفات تصيب كل مكان في الأرض لا يعلو عليها علم
مهما بلغ .. وهكذا حتى نعرف أن الأرض لا تعطينا الثمر بالأسباب
وحدها ، ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى التي هي فوق الأسباب .. لكيلا
نعبد الأسباب وتنسى المسبب وهو الله سبحانه وتعالى .

فإذا انتقلنا إلى الحيوان نجد طلاقة القدرة واضحة .. فهناك من
الحيوان ما تزيد قوته على الإنسان مرات ومرات .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد أخضعه وذلله للإنسان .. فتجد الصبي الصغير يقود الجمل أو
الحصان ويضرره .. والجمل مثلاً يستطيع بضررية قدم واحدة أن يقضى
على هذا الطفل ولكنه لا يفعل شيئاً ويمضي ذليلاً مطيناً ولا يرد على
الإيذاء رغم قدرته على ذلك .. ونجد الكلب مثلاً يحرس صاحبه ويدافع عنه
لأن الله ذلله له .

فإذا جئنا إلى الذئب أو الثعلب من نفس فصيلة الكلب نجد أنه يفترس
الإنسان ويقتله .. ولو أن هذا التذليل للحيوان بقدرة الإنسان لاستطاع
كما ذلل الجمل والبقرة والكلب أن يذلل الذئب والثعلب وغيرهما من
الحيوانات .. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى أن هذا التذليل بقدرته سبحانه وتعالى .. إن الثعبان الصغير وهو حشرة ضئيلة الحجم يقتل الإنسان ..
دون أن يستطيع أن يذلله .. وهذه علامة من علامات طلاقة القدرة في

الكون .. ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن كل شيء بقدرته ومنه .. وليس بالأسباب وليس بقدرة الإنسان .. بل إن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق وهو الذي جعل هذا في خدمة الإنسان .. وهذا يمكن أن يؤذى الإنسان .. وجعل موازين القوة والضخامة تختل .. حتى لا يقال إن هذا الحيوان قوي بحجمه أو بالقوة التي خلقت له .. بل جعل أضعف الأشياء يمكن أن يكون قاتلا للبشر ..

الجماد والحياة

ثم نأتي إلى الجماد .. الأرض من طبيعتها ثبات قشرتها حتى يستطيع الناس أن يعيشوا عليها ، ويبنوا مساكنهم ، ويعمارسوا حياتهم .. ولو أن قشرة الأرض لم تكن ثابتة لاستحالت الحياة عليها ، واستحالت عمارتها .. والله سبحانه وتعالى يريد منا عمارة الأرض .. ولذلك جعل قشرتها ثابتة صلبة .. ولكن في بعض الأحيان تتحول هذه القشرة الثابتة إلى عدم ثبات .. فتتفجر البراكين ملقية بالحمم .. وتحدث الزلازل التي تدمر كل ما على المكان الذي تقع فيه .. ويتقدم العلم ويكتشف الله بعضا من علمه لبعض خلقه ما يشاء .. ولكن يبقى الإنسان عاجزاً عن أن يتتبأ بالزلزال .. فيأتي الزلزال في أكثر بلاد الدنيا تقدماً ليفاجئ أهلها دون أن يشعروا بقرب وقوعه .. بل إنه من طلاقة قدرة الله أنه أعطى بعض الحيوانات .. التي ليس لها عقول تفكير ، ولا علم ولا حضارة .. أعطاها غريرة الإحساس بقرب وقوع الزلزال .. ولذلك فهي تسارع بمعافارة المكان أو يحدث لها هياج .. إن كانت محبوسة في أقفاص أو حظائر مغلقة .. وذلك ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى أن العلم يأتي منه سبحانه ولا يحصل عليه الإنسان بقدرته .. فيعطي سبحانه من لا قدرة له على الفكر والكشف

العلمى مالا يعطيه لذلك الذى ميزه بالعقل والعلم .

لماذا ؟ لنعلم أن كل شيء من الله فلا تعبد قدراتنا .. ولا نقول : انتهى عصر الدين والإيمان وبدأ عصر العلم .. بل نلتفت إلى أن الله يعطي لمن هم دوننا في الخلق علمًا لا نحصل نحن إليه .. فنعرف أن كل شيء بقدراته وحده سبحانه وتعالى .

ومظاهر طلاقة قدرة الله في كونه كثيرة .. فهو وحده الذي ينصر الضعيف على القوي ، وينتقم للمظلوم من الظالم .. وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. على أن طلاقة القدرة في تغيير ما هو ثابت من قوانين الكون إنما يأتي عند نهاية الحياة على الأرض .. حينئذ يغير الله القوانين كلها ويحدث الدمار وتنتهي الحياة ..

وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَافِرُ أَنْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْيَمَّاْرُ فُجِّرَتْ
﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْرَتْ ﴿٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا فَدَدَتْ وَأَخْرَتْ ﴿٤﴾ ﴾

(الآية من ١ - ٥ من سورة الانفالار)

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم .. تنبئنا بما سيحدث عندما تقوم القامة.

إذن الذين يقولون : إن عظمة الله سبحانه وتعالى في خلقه هي الثبات والدقة التي لا تتأثر بالزمن .. والتي تبقى ملايين السنين دون أن تختل ولو ثانية واحدة ، نقول لهم : هذه موجودة وانظروا إلى القوانين الكونية ودقتها وكيف أنها لم تتأثر بالزمن .. والذين يقولون : إن عظمة الحق سبحانه وتعالى في طلاقة قدرته في كونه .. وألا تكون الأسباب مقيدة

لقدرة الخالق والسبب .. نقول لهم : انظروا في الكون وحولكم مظاهر طلاقة القدرة .. وليست هذه المظاهر مختفية أو مستوره .. بل هي ظاهرة أمامنا جميعاً .. وليست في أحداث بعيدة عن حياتنا .. بل هي تحدث لنا كل يوم .

وإذا صاح إنسان من قلبه : (ربنا كبير) .. أو (ربنا موجود) .. أو (ربك يمهد ولا يهمل) .. فمعنى ذلك أنه رأى طلاقة قدرة الله، تنصف مظلوماً، أو تنتقم من ظالم .. أو تنصر ضعيفاً على قوى .. أو تأخذ قوياً وهو محاط بكل قوته الدنيوية .

فالإنسان لا يتذكر قدرة الله عندما يرى الكون أمامه يمضي بالأسباب. ذلك أن هذا شئ عادي لا يوجب التعجب .. فانتصار القوى على الضعيف لا يشير في النفس اندهاشاً .. والأجر العقول للعمل شئ عادي .. والأحداث بالأسباب هو ما يعيش الناس .. ولكننا نتذكر قدرة الله إذا اختلت الأسباب أمامنا .. وجاء المسبب ليعطيانا ما لا يتفق مع الأسباب ولا مع قوانينها .

في هذا الفصل استعرضنا بعض أسباب الوجود التي تثبت قضية الإيمان بالدليل العقلى .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَفِي أَفْئِسِكُمْ أَفَلَا يُبَصِّرُونَ ﴾ (٢١)

(من الآية ٢١ من سورة الذاريات)

على أن بعض الناس ينظر إلى نفسه فلا يرى شيئاً .. فما معنى هذه الآية الكريمة ؟ .

هذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني :

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

وَفِي أَنفُسِكُمْ لَأُفَلَّا تَبْهَرُوهُ

هذه الآية يعرّف عليها كثير من
الناس دون أن يتبعها إلى
الفيوضات والمعانى التي
تحتويها. بل إنك إذا سألت
إنساناً غير مؤمن ماذا
يعرف عن هذه الآية الكريمة
يقول لك : لاشئ في نفسي

فَإِنَّا إِنْسَانٌ أَوْلَدْ وَأَكْبَرْ وَأَتَزَوْجْ وَأَعْمَلْ وَتَنْتَهِي حَيَاتِي وَأَمْوَاتْ .. فَمَاذَا فِي نَفْسِي ؟ .. نَقُولُ لَهُ : لَوْ أَنْكَ تَدْبِرْتَ لَعْلَمْ أَنْ فِي نَفْسِكَ آيَاتْ وَآيَاتْ .. سَنَذْكُرْ فِي هَذَا الْفَصْلِ بَعْضَ هَذِهِ الْآيَاتْ ، لَأَنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْإِنْسَانِ كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ ..

أول شئ هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِنَّ وَذُرِّيَّتِهِنَّ وَأَشَهَدَهُنَّ عَلَىٰ أَنفُسِهِنَّ أَسْتَعِنُ بِرَبِّكُمْ قَالَ الْوَابِلُ شَهِدَنَا أَنَّنَا قَوْلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

(الآية ١٧٢ من سورة الأعراف)

إذا قرأت هذه الآية يقول لك غير المؤمن : لم نشهد شيئاً ولم نر شيئاً ولم نحس شيئاً .. ونقول : بل شهدت .. وأنت شهيد على نفسك في ذلك .. كيف ؟ .. الله سبحانه وتعالى عرفنا أنه موجود .. وعرفنا بشهادة ربوبية وليس بشهادة الوهية .. ومعنى ذلك أن المؤمن والكافر يعلم في نفسه وجود الله .. ولكن الكافر يحاول أن يستر هذا الوجود ليحقق شهواته وما يريد ولو على حساب حقوق الآخرين .. ولتنظر إلى ما أحل الله وما حرم الله .. ثم لننظر إلى النفس البشرية على عمومها لنرى ماذا تفعل .. ولتعرف يقيناً أن هذه النفس تعرف ما أحل الله وتسريحة له وتنسجم معه .. وتعرف ما حرم الله فيصيبها اندفاع واضطراب وذعر وهي ترتكبه .. وأول هذه الأشياء هو العلاقة بين الرجل والمرأة ..

إذا جاءك رجل وقال : أريد أن أختلي في حجرة ابنتك .. ماذا تفعل به ؟ .. قد تقتله .. وإن لم تقتله فقد تضرره .. ويعينك على ذلك كل الناس .. وسيجد فعله هذا استنكاراً عاماً من المؤمن وغير المؤمن ..

فإذا جاءك هذا الرجل وقال : أريد أن أتزوج ابنتك فإنك تستقبله بالترحاب وتدعوه الناس للترحيب به .. وتعلن النباء على الجميع .. وتعقد القران ، وبعد عقد القران تتركه هو وابنته في الحجرة .. وتوافق على الخلوة بينهما .

ما الفرق بين الحالتين ؟ بعض الناس يقول إنها وثيقة الزواج التي تحرر .. فهل الفرق هو الورقة فعلا ؟ .. لا .. الفرق هو الحلال والحرام .. ما أحله الله وما حرم .. ما أحله الله ينسجم مع النفس البشرية ويقبله كل الناس .. وما حرمته الله تستنكره كل نفس بشرية وتتفعل ضده .

كيف يحدث هذا ؟ .. لأنك عرفت يقيناً منهج الحق والباطل .. ومن عرفته ؟ .. من الذي وضعه .. ليس هذا فقط .. بل انظر إلى إنسان في شقة مع زوجته .. مطمئن تماماً يدخل أمام الناس إلى بيته .. وإذا طرق الباب قام وفتح للطارق .. وإذا جاء صديق استقبله باطمئنان .. وإذا خرج إلى الشارع أخذ زوجته معه أمام الناس جميعاً .. انظر إلى نفس الشخص مع زوجة غيره .. يغلق الأبواب والتواذن حتى لا يراه أحد .. وإذا طرق الباب انزعج ولا يفتح .. وإذا جاءه صديق أصيب بالذعر .. وإذا خرج إلى الشارع مشى بعيداً عنها .

ما الفارق بين الحالتين ؟ .. الفارق هو الحلال والحرام اللذان تعرفهما كل نفس ، حتى تلك التي لم تقرأ شيئاً عن الدين .. لأن الله قال :

﴿وأشهدكم على أنفسهم ألسنت بريكم قالوا بلى﴾

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى أوجه الحياة .. لص يريد أن يسرق .. يتأكد أولاً من أن الطريق خال .. ولا يجرؤ أن يفعل ذلك إلا في الظلام أو بعيداً عن الناس .. وبمجرد أن يأخذ ما يريد أن يسرقه ينطلق بسرعة وهو يتلفت يميناً ويساراً خوفاً من أن يراه أحد .. ثم يبحث عن مكان يخفي فيه المسروقات .. انفعالات رهيبة في داخله تزكّد أنه يعرف أن ما يفعله إثم وخطيئة .. لكن الإنسان عندما يريد أن يدخل بيته ليأخذ شيئاً دخل أمام الناس جميعاً ومشي باطمئنان .. وحمل الشيء الذي يريد وهو لا يخشى أن يراه أحد .. ذلك أنه يحس في داخله بأنه يفعل شيئاً لا يحرمه الله .. الذي يأخذ رشوة مثلاً .. يتلفت حوله يميناً ويساراً ويسارع يأخفافها .. والذى يقبض مرتبه يفعل ذلك أمام الدنيا كلها .

الإنسان .. وقوانين السماء

وهكذا كل مقاييس الخير والشر .. مقاييس الخير تنسجم معها النفس البشرية ، وتحس بطبعاتها وراحتها .. مقاييس الشر تضطرب معها النفس البشرية وتحس بالفزع والذعر وهى ترتكبها .. من الذى وضع فى النفس هذا .. أنها تعرف يقينا هذه المقاييس التى وضعها الله لمنهجه فى كونه .. ومن الذى أعلم هذه النفس أن هناك مقاييس .. وإن هناك إليها .. إلا أن تكون الآية الكريمة :

وَإِذْ أَخَذَ رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِنَّ ذُرِّيَّتَهُنَّ وَأَشَهَّهُنَّ

عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلْسُتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلْ شَهِدْنَا

(من آية ١٧٢ من سورة الأعراف)

هي التفسير الوحيد لمقاييس الخير ومقاييس الشر التي وضعت فينا بالفطرة .. وبما أن هذا عطاء ربوبية، فإن الله سبحانه وتعالى رب الناس كل الناس .. من أمن به ومن لم يؤمن .. ولذلك وجدت في البشر كلهم .

نأتي بعد ذلك إلى نقطة ثانية .. الله سبحانه وتعالى غيب .. وغير المؤمن يقول أنا لا أؤمن إلا بما أرى .. أما ما هو غيب عنى فلا أؤمن به لأنني لم أشهد .. والإيمان غير الرؤية .. فلأنني إذا رأيتني أمامك لا تقول أنا أؤمن أنني أراك .. لأن الرؤية عين يقين ليس بعدها دلالة .. ولا تقول أنا أؤمن أنني أجلس مع أصدقائي ولا تقول إنني أؤمن أنني أرى الشمس مثلاً ذلك هو عين اليقين .. وهناك علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين .. فعلم اليقين هو الذي يأتيك من إنسان تثق فيه وفي أنه صادق في كلامه .. فإذا قال لك إنسان مشهود له بالصدق أنا رأيت فلاناً يفعل كذا .. فلأنك تصدق بوثوتك بمن قال .. فإذا رأيت الشيء أمامك يكون ذلك عين اليقين. فالذي يقول لك مثلًا إن هناك مخلوقًا نابراً في بلدة كذا فلأنك تصدقه ، لأنك تثق فيه .. فإذا جاء معه بهذا المخلوق وأظهره أمامك أصبح علم اليقين عين يقين .. فإذا لمسته بيديك وتحسسته وتتأكدت من أوصافه يكون هذا حق اليقين .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب غير المؤمنين عن جهنم يقول :

﴿ كَلَّا لَتَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَرَوْتُ الْجَعِيشَ ۝ ثُمَّ
لَرَأَنَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ۷﴾

(الآيات من ٥ - ٧ من سورة التكاثر)

أى أن كلاماً منا سيرى جهنم بعينيه في الآخرة .. ثم يقول سبحانه وتعالى :

فَوَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الظَّالِمِينَ ١٢ فَرُولُ مِنْ حَمِيرٍ ١٣ وَنَصْلَيَةُ
جَحِيرٍ ١٤ إِنَّ هَذَا الْمَوْحِدُ الْيَقِينُ ١٥

(الآيات من ٩٢ - ٩٥ من سورة الواقعة)

أى أن الكفار حين يدخلون النار ويعذبون فيها سيكون ذلك حق يقين ..
أى واقعاً يعيشونه وليس مجرد رؤية ..

هذه هي الرؤية .. أما الإيمان فهو تصديق بغير .. فلأنه تقول : أنا
أؤمن أن ذلك حدث كما أراك أمامي .. أى أنه لم تشهد ما حدث .. ولكنك
وصلت بالدليل والاقتناع إلى أنه قد حدث .. وأصبح في نفسك كيقين
الرؤية تماماً .

أين الروح في جسده

غير المؤمن يقول إن الله غيب وأنا لا أصدق إلا ما أرى .. نقول : قبل
أن تعلن هذا الكلام تذكر الآية الكريمة :

﴿ وَقَنْ أَنْفَسَكُمْ أَفَلَا تَبْصِرُونَ ﴾

وأنت في جسده الروح هي التي تهكك الحياة والحركة .. فإذا خرجت
الروح من جسده سكنت الحركة وانتهت الحياة ..

إذن كل منا يعرف يقيناً أن هناك شيئاً اسمه الروح .. إذا دخل
الجسد أعطاه الحياة .. وإذا خرج منه توقفت الحياة .. من هنا رأى
الروح ؟ .. بل من منا يعرف أين موقعها من الجسد ؟ .. أهى في القلب

الذى ينبض ؟ .. أو فى العقل الذى يفكر ؟ .. أو فى القدم التى تتحرك ؟
أو فى العين التى ترى ؟ .. أو فى الأذن التى تسمع ؟ .. أين مكانها
بالضبط ؟ .. وما هى الروح ؟ ..

أكبر علماء الدنيا لا يعرف عنها شيئاً .. حتى ذلك العالم السويسرى
الذى جاء بالناس وهم يحتضرون ووضعهم على ميزان دقيق .. وعندما
سلمو الروح وجد أن الجسد قد فقد من وزنه بضعة جرامات لحظة
خروج الروح .. فاعلن أن الروح لها وزن .. أو أن لها كياناً مادياً وإن كان
لا يزيد على جرامات .. نقول إن هذا غير صحيح .. لأن هذه الجرامات قد
تكون هي وزن الهواء الذى خرج من الرئتين ، ولم يدخل غيره .. أو تكون
بسبب توقف سريان الدم بالجسم .

إذن الروح - وهى موجودة فى جسسك - غيب عنك .. فللت لا تعرف
ما هى ؟ .. ولا أين هى ؟ وأنت لا تعرف كيفية سريانها فى الجسم .. وإلا
قل لنا إذا أصيб إنسان فى حادث ويتربت ساقاه .. أين ذهبت الروح التى
كانت فى الساقين تعطىهما الحياة والحركة ؟ ولكنك تستدل على وجود
الروح مع أنها غيب عنك بتأثيرها فى أنها تعطى الحياة والحركة لجسسك ..
ولكن هل وجود الروح فى المخلوق الحى وجود يقينى .. يقول أكبر علماء
الدنيا الماديين : نعم .. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الجسد الحى فيه
الروح ، وأن الجسد الميت قد خرجت منه الروح .

إذن فوجود الروح علم يقين مستدل عليه بتأثيرها .. فهل إذا كان وجود
الروح فى جسسك يؤكد لك يقيناً أنها موجودة مستدلاً على ذلك بالحركة
والحياة التى تعطىها فى الجسد .. ألا يدل هذا الكون كله بما فيه من

إعجاز الخلق على وجود الله يقينا .. ألا تنظر إلى جسدك والروح فيه ثم تنظر إلى الكون لتستخدم نفس القانون .. أم أنت في جسدك لا تستطيع أن تجادل .. وفي الكون بعظمته تجادل ؟! .. أليس هذا كذباً على النفس واحتقاراً لمهمة العقل .. ألا تتدبر في معنى الآية الكريمة :

﴿وفي أنفسكم أفلًا تبصرون﴾ .

الإنسان وقدراته

ثم نأتي بعد ذلك إلى النقطة الثالثة .. غير المؤمن يقول أنا سيد نفسي .. أنا حاكم نفسي أفعل بها ما أشاء .. نقول : هذا افتراء على الله .. فجسدك هو ملك الله .. وهو يفعل فيه ما يشاء إلا ما شاء أن يجعلك فيه مختاراً .. وإذا لم تصدق ذلك فانظر إلى جسدك .

القلب ينبض .. فهل أنت الذي تجعله ينبض ؟ .. وهل تستطيع أن توقفه قليلاً ليستريح ؟ .. أو تجعله إذا توقف أن يعود إلى الحركة مرة أخرى ؟ .. وكيف يمكن أن يتبع القلب لإرادتك ، وهو ينبض ، وأنت نائم مسلوب الإرادة .. ومن الذي يعطي الأمر للقلب لكي يقلل نبضاته وأنت نائم ، لأنك متوقف عن الحركة .. و يجعله يسرع في النبض وأنت تقوم بأى مجهود تحتاج إلى سرعة حركة الدم في الجسم .

وحركة التنفس هل أنت الذي تقوم بها ؟ .. وإذا قلت نعم فكيف تتنفس وأنت نائم ؟ .. إنها حركة تم بالقهر لا سلطان لك عليها .. فإذا صدر لها الأمر الإلهي بأن تتوقف فلا أحد يستطيع أن يعيدها .

ومعدتك وما يحدث فيها من تفاعلات لهضم الطعام وأنزيمات تفرز من
غدد متعددة .. أيةم هذا بإرادتك ..

وأمعاذك وحركة الطعام فيها وامتصاص ما يفيد الجسم وطرد ما لا
يفيده .. أيحدث هذا بإرادتك أم أنها تتم دون أن تدري .. وكرات الدم
البيضاء وهي تتصدى للميكروبات التي تدخل جسدك فترسل كرات معينة
لتحدد ما يمكن أن يقضى على الميكروبات .. ثم يقوم النخاع بتصنيع
المواد المضادة فتقضى على الميكروب فعلا .. أتدري أنت شيئاً عن هذه
العملية؟ .. إن كل هذا م فهو لله سبحانه وتعالى .. يقوم بعمله دون أن
يتوقف .. ودون أن تدري أنت عنه شيئاً ..

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى .. أنه خلق هذه الأجهزة البشرية
مقدورة له .. وإلا لما استطاع الإنسان الحياة ، ولا العمل ، ولا أداء مهمته
في عمارة الكون .. وإلا فقل لى بالله عليك .. لو أن قلبك يخضع لإرادتك
كيف يمكن أن ت quam ؟ .. إنك ستظل يقظاً لاستمر القلب في النبض .. لو
أن معدتك تخضع لإرادتك لاحتاجت إلى ساعات طويلة بعد كل وجبة لتقضي
عملية الهضم .. لو أن الدورة الدموية تخضع لإرادتك .. لما استطاع عقلك
أن يستمر في الحياة وهو مشغول بمئات العمليات التي تتم كل دقيقة ..

وهكذا شامت رحمة الله أن يجعل كل هذا بالقهر حتى تستطيع الحياة
والسعى في الأرض ، وحتى يمكنك أن تتمتع بحياتك ..

إذن لا تقل أنا حر في جسدي .. أو جسدي خاضع لي .. فهذا غير
صحيح علمياً وبالدليل المادي .. فائت م فهو في كل أجهزة جسدك .. حتى
ذلك الذي أخضعها الله لإرادتك فهذا خضوع ظاهري وليس خضوعاً

حقيقياً. ولقد شامت حكمة الله أن يرينا هذا في الدنيا أمامانا بالدليل المادي .. فلأنك تبصر بعينيك ، وحتى لا تفتر وتعتقد أن هذا الإبصار من ذاتك، وأنه خاضع لإرادتك .. أوجد الله سبحانه وتعالى من له عينان مفتوحتان ولا يبصر .. وأنت تعيش بقدميك .. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشي .. وأنت تحرك يديك تتحرك وتفعل بهما ما تشاء .. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له يدان ولا تستطيعان الحركة .. وأنت تتحدث بلسانك وتسمع بإذنيك .. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له لسان ولا يقدر على الكلام .. ومن له أذنان ولا يسمع .. كل هذه أمثلة قليلة وضعها الله سبحانه وتعالى في الكون .. ليلفتنا إلى أنه ليس لنا ذاتية .. وأن الأمر كله لله .

فإذا كنا نبصر بأعيننا فنحن نبصر بقدرة الله التي أعطت العين قوة الإبصار .. ونمشي بقدرة الله التي أعطت القدمين قوة الحركة .. ونسمع ونتكلم بقدرة الله التي أعطت اللسان قدرة الكلام والأذن خاصية السمع .. ولو كان هذا بذاتية منا .. ما استطاع أحد أن يسلينا النظر أو السمع أو الحركة أو الكلام .

الاختيار والقدرة

بل إن الله سبحانه وتعالى أقام لنا الدليل على أنه حتى حركاتنا الاختيارية لا تتم إلا بقدرته .. مثلاً إذا أردت أن تقوم من مكانك .. كم عضلة تتنفس ، وكم عضلة تتبسط ، حتى تتمكن من القيام ؟ .. ولكن نقوم من أماكننا ونحن لا ندرى أى العضلات تتحرك وأيها لا يتحرك .. بمجرد أن يخطر على بالنا لنقوم .. هذه العضلة تتبسط ، وهذه تتنفس بقدرة الله

وليس بإرادتنا .. العملية التي تتم في عضلات الجسم ساعة القيام .. ليس لنا في حركتها إرادة إلا أننا أردنا أن نقوم . وكذلك في المشي والجري وكل حركة نقوم بها .

إذن حركات الجسد كلها خاضعة لنا بإرادة الله سبحانه وتعالى .. الله هو الذي أخضعها لما نريد وجعلها تفعل ما نشاء .. وهي تفعله ، دون علمنا بذلك .. بل تفعله بشفرة إلهية وضعها الله في أجسادنا .. فتنقبض وتتبسط العضلات فيتم كل شيء ونحن لا ندري .

ثم يقول الإنسان أنا مسيطر على جسدي أفعل ما أشاء .. نقول لو كنت مسيطرًا حقيقة لعلمت ما يجري فيه .. ولكن هذا الجسد مسخر لك بقدرة الله .. ولذلك فهو يفعل لك ما تريد دون أن تدري ، أو تحس كيف يتم هذا الفعل ..

الضحك والبكاء

بل أكثر من ذلك تحديا من الله سبحانه وتعالى .. يأتي الحق في كتابه الكريم ويقول :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾

(الآية ٤٢ من سورة النجم)

أكثرنا يمر على هذه الآية الكريمة ولا يلتفت إليها .. ولكن هذه الآية فيها إعجاز من الله سبحانه وتعالى .. يقول الحق سبحانه تعالى :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾

معناه أن الضحك والبكاء من الله .. وكونه من الله سبحانه وتعالى يكون لجميع خلقه .. فالله حين يعطي ، يعطي الخلق جميعاً ذلك هو عدل

الله .. فإذا نظرت إلى الدنيا كلها تجد أن الضحك والبكاء موحدان بين البشر جميعاً على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم .. فلا توجد ضحكة إنجليزية وضحكة أمريكية وضحكة افريقية .. بل هي ضحكة واحدة للبشر جميعاً . ولا يوجد بكاء آسيوي أو بكاء استرالي .. وإنما هو بكاء واحد .. فلفة الضحك والبكاء موحدة بين البشر جميعاً . وهي إذا أصطنعت تختلف ..

وإذا جات طبيعة تكون موحدة .. ولذلك إذا أصطنع أحدهنا البكاء أو أصطنع الضحك فإنه تستطيع أن تعيزه بسهولة عن ذلك الانفعال الطبيعي الذي يأتي من الله.

ومن العجيب أنك ترى مثلاً الفيلم الكوميدي الذي صنع في أمريكا يضحك أهل أروبا والذى صنع في آسيا مثلاً يضحك أهل استراليا .. بل إن هناك من أعطاهم الله موهبة القدرة على إضحاك شعوب الدنيا كلها .. ولعل هناك نجوماً عالمية في فن الكوميديا تضحك العالم كله .. وهناك أفلام عاطفية تبكي العالم كله .. فبعض الأفلام مثلاً إذا قدمته بأى لغة أبكي الناس .. وهكذا تنزل أحياناً الرحمات من الله فتفيض العيون بالدموع .. وأحياناً يريد الله أن يروح عن النفوس فتتعالى الضحكات.

ولكن قد يقول بعض الناس .. إن هناك ما يضحك واحداً ولا يضحك الآخر .. وأن هناك مشهداً يبكي إنساناً ، في حين تتحجر الدموع في العيون فلا يبكي إنسان آخر في نفس الموقف .. نقول إنك لم تفهم الآية ..

قوله تعالى :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَّأَبْكَى﴾

ليس معناه بالضرورة أن الناس تضحك معاً وتبكي معاً .. ولكن معناه أن الإنسان لا يستطيع أن يضحك نفسه ، ولا أن يبكي نفسه عن شعور صادق وبلا اصطناع .. ولكن ذلك من الله .. ولذلك انعدمت فيه الإرادة البشرية .. فليس لكل واحد منا ضحكة تميزه .. بل نحن نضحك جميعاً بلغة واحدة .. وليس لكل واحد منا بكاء يعيزه .. بل نحن نبكي جميعاً بلغة واحدة .. وليس أى واحد منا قادراً على أن يضحك ضحكة طبيعية بارادته كأن يقول إبني سأضحك الآن فيضحك .. ولا يستطيع إنسان أن يبكي بكاء طبيعياً كأن يقول أنا سأبكي الآن فيبكي .. إلا أن يصطنع الضحك أو البكاء بشكل غير طبيعي.

ولكن يأتي الضحك والبكاء من الله حين يكون طبيعياً .. ولأنه يأتي من الله فهو موحد بين البشر جميعاً .. فإذا كنت لا تستطيع أن تضحك نفسك أو تبكي نفسك .. فكيف تدعى أنك سيد نفسك .. ولماذا لا تسلم لخالقك؟

الفعل .. والمشيئة

فإذا كان هذا هو الشأن في الجسد البشري .. فامن بالله الذي هو يملك كل خيوطك فإذا كنت لا تؤمن بجنته ولا تريد ثوابه .. فاخش عقابه. وإذا كنت لا تؤمن بالآخرة فاخش عقابه في الدنيا .. فهو الذي يملك كل خيوط حياتك ويستطيع أن يفعل بك ما يشاء.

على أن الله سبحانه وتعالى له لفقات أخرى .. يلفتنا لقدرته وعظمته وجوده .. إذا كنت تتائب على الإيمان بالله وتقول أنا سيد نفسي .. فإذا جاءك قدر الله بالمرض فامنعه عن نفسك . وقل لن امرض .. وإذا جاءك قدر الله بالموت فامنعه عن نفسك ، وقل لن أموت وإذا جاءك قدر الله في

مکروہ کائن تصاب فی حادث .. او ان تسقط من مکان فتھش عظامک
فقل لن اسقط.

هذا هو قهر القدرة الذى لا تستطيع أن تتفىء أمامه .. وتقول ساق فعل
ولا أفعل .. لأن الله لم يعطك الاختيار فى أن تفعل أو لا تفعل فى القدر
الى تقع عليك .. فقدر الله عليك ينفذ رغم إرادتك .. وأنت خاضع لقدر الله
سواء رضيت أو لم ترض .. ففى الكون أحداث تقع لا تملك فيها اختياراً.

بعض الناس يجادل في هذا ، ويقول : إن الإنسان القوى يستطيع أن يصنع قدره .. نقول إن القرآن الكريم قد رد على هؤلاء في قول الحق سخانة وتعالى :

سبحانه وتعالى:

فَلِلَّهِمَّ مَالِكَ الْجَنَاحَيْنِ تُرْكِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَزْيَّنُ الْمُلْكَ مِنْ مَنْ شَاءَ وَتَعْزِزُ مَنْ شَاءَ وَتَذْلِلُ مَنْ شَاءَ بِسْمِكَ الْحَمْدِ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ^١

فَدْرٌ

(آیه ۲۶ من سرہ آل هران)

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

وتنزع الملك من تشاه .

أى أنه لا يوجد إنسان يتخلى عن الملك أو عن المنصب والجاه بإرادته بل لابد أن ينزع منه انتزاعاً .. ولذلك تأتى الثورات والانقلابات .. لتنزع الملك من أولئك الذين اعتنقوا أنهم ملوك الدنيا .. وأنهم قادرون على أن يفعلوا ما شاءون بمجرد كلمة أو أمر أو إشارة .. في يأتي الله سبحانه

وتعالى ليزعمون لهم هذا رغمًا عنهم .. فتجد الواحد منهم الذى كان يحتمنى به الناس عاجزاً عن أن يحمى نفسه .. يهرب من مكان إلى آخر .. وتجده وهو المعتز بالدنيا يتعمنى لو أخذ الناس كل ما يملك ، وأبقوها على حياته ..

إن هذا يحدث ليفتنا الحق جل جلاله إلى أنه لا أحد يأخذ الملك أو المركز العالى بيارادته وتخطيطه .. وإنما هي أقدار يجريها الله على خلقه .. فإذا أتى أمر الله نزع منه كل شيء .. ولو كان الأمر بذاته لما استطاع أحد أن ينزعه منه .. ولا يوجد إنسان في هذا الكون يستطيع أن يدعى أنه في منعة من قدر الله .. فإذا كانت هذه هي الحقيقة فهي الدليل المادى على أن الإنسان تحكمه قدرة خالقه .. وأنه لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى فعل الإنسان وعمله الدنيوى .. تجد بعض الناس يقول : إننى سأفعل كذا وكذا .. وسأقوم بتنفيذ كذا .. نقول له : إنك أعجز أن تفعل إلا أن يشاء الله .. فال فعل محتاج إلى زمان .. ومحاج إلى مكان .. ومحاج إلى فاعل ، ومحاج إلى مفعول به .. وأنت لا تملك شيئاً من هذا كله .. فإذا جئنا إلى الفاعل فانت لا تملك حتى اللحظة التي تعيش فيها .. ولا تضمن أن يمتد بك العمر ثانية واحدة .. حتى ولو كانت كل الشواهد الصحيحة تدل على ذلك .. ألا يوجد من لا يشكى من شيء ، ثم يسقط فجأة ميتاً ويقال جاءه جلطة في المخ .. أو سكته قلبية .. أو أصيب بببوط حاد في الدورة الدموية ؟!

هذه كلها أسباب .. ولكن السبب الحقيقى هو أن الأجل قد انتهى .. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

(آلية ٢٤ من سورة الأعراف)

إذن ساعة أن صدر الأمر من المسبب وهو الله جل جلاله انتهى العمر.

الإنسان والزمن

ومن العجيب أنك ترى أكبر أطباء القلب يموتون بأمراض القلب .. وأكبر أطباء المخ تنتهي حياتهم بمرض في المخ .. فإذا ملكت اللحظة التي تعيش فيها .. ويفيت حتى ساعة إتمام الفعل ، فإنك قد تصاب بعرض يقعدك عن الحركة ، فلا تستطيع إتمام الفعل .. هذا بالنسبة للفاعل ..

فإذا جئنا للزمن فأنتم لا تملكونه ، ولكنه هو الذي يملك .. ولذلك فإنه قد يأتي زمن التنفيذ فتتغاجأ بحدث يمنعك .. كأن يصاب ابنك في حادث مثلا .. أو يموت أحد أقربائك .. أو تضطر لاضطراراً إلى سفر عاجل ل مهمة ضرورية .. أو يقبض عليك في جريمة أو في اتهام .. إذن فأنتم لا تملكونه ولا تستطيع أن تقول إنني في ساعة كذا سأفعل كذا ..

وبالنسبة للمكان فقد تختار مكاناً لتبني فيه عمارة مثلا .. فتتأتي لتجد أن هذا المكان قد استولت عليه الدولة للمنفعة العامة .. أو قد ظهر له ورثة لم تكن تعرفهم فأوقفوا العمل .. أو أن تقرر أن يقام في وسطه طريق .. أو أن الأرض تحتها مياه جوفية تجعلها غير صالحة للبناء ..

وإذا جئنا للمفعول به فقد يرفض الذي تطلب منه العمل القيام به .. وقد لا تجد عمالاً ليقوموا بالتنفيذ .. وقد لا يأتي المقاول الذي اتفقت معه

وقد لا يحضر الموظف الذي سيعطيك الرخصة لتبديأ العمل . إذن فأنتم لا تملكون شيئاً من عناصر الفعل كلها . ولذلك طلب منك الله سبحانه وتعالى .. أن تتأدب وتعطى الشيء لأهله، وتنسبه إلى الفاعل الحقيقي.. فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُنَّ لِشَأْنٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدَأً ﴾ ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ أَوْ أَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنَّ رَبِّيْ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا شَدَّاً ﴾

(الآياتان ٢٢ و ٢٤ من سورة الكهف)

أى إذا أنساك الشيطان أن القوة لله جمِيعاً فلتذكر هذه الحقيقة تتجاوزها .

نأتي بعد ذلك إلى معجزة أخرى في النفس البشرية .. تلك هي معجزة القرآن الكريم والقرآن فيه إعجاز كثير .. ولكننا نتحدث هنا عن الإعجاز القرآني في النفس البشرية كل إنسان منا له طاقة وقدرة عقلية .. فالمتعلم طاقته العقلية أكبر من لم ينزل حظاً من العلم أو من الأمي .. وهؤلاء جميعاً لا يمكن أن يجتمعوا عقلاً ليشهدوا شيئاً واحداً .. وكل واحد منهم ينسجم مع هذا الشيء نفس الانسجام .. (فإذا كانت مثلاً هناك محاضرة في فرع من العلوم فلا يستطيع أن ينسجم معها إلا ذلك الذي يفهم في هذا الفرع ، أما إذا دخل إليها عدد من الذين لم يقرأوا عن هذا العلم فإن الانسجام يضيع .. ذلك يحدث في كل فرع من فروع الدنيا .. ولكنك إذا جئت إلى القرآن الكريم ، وهو كلام الله ، تجد أن كل النفوس البشرية المؤمنة تنسجم معه .. لا تجمعها رابطة علم أو ثقافة .. وإنما

الذى يجمعها هو رابطة الإيمان .. (إنك تدخل إلى المسجد تجد فيه المتعلم ونصف المتعلم والعالم وقد جلسوا معاً جمِيعاً يستمعون إلى القرآن الكريم .. وتجدهم جمِيعاً منسجمين مع القرآن .. تهتز نفوسهم له .. وترتاح ملِكاتهم إليه .. لا فرق بينهم ، حتى ذلك الذى لا يعرف معنى الفاظ القرآن الكريم .. تجده جالساً يستمع وهو منسجم ويهتز من داخله وتقام الصلاة فيف الجميع في إنسجام وراء الإمام .. تختفي الفوارق الدينية بينهم .. ولكن تجمعهم رابطة الإيمان .. فيصلون جمِيعاً بانسجام .. لأن ملِكاتهم التي خلقها الله فيهم منسجمة ومتتفقة مع كلام الله .. فلا تلحظ فرقاً ولا ترى إلا مساواة إيمانية.

إعجاز القرآن

بل إنه من العجيب أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد في العالم الذي يمكن أن يحفظه الإنسان بدون فهم .. فتجد الطفل الصغير عمره سبع سنوات وربما أقل من ذلك ومع هذا يحفظ القرآن كله .. أيمكن لهذا الطفل الصغير غير المكلف أن يستوعب معانى القرآن الكريم؟ ... بالطبع لا .. ولكن الإيمان الفطري في داخله يجعله يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويثنوه .. لأن هذا الإيمان من الخالق ، وهو الله سبحانه وتعالى .. والقرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى .. ولذلك تنسجم النفس البشرية وهي في أولى مراحلها مع كلام خالقها، أليس هذا إعجازاً نقف عنده ليلفتنا إلى الله سبحانه وتعالى .. وأنه هو الخالق وهو الموجد. فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إن الإنسان يولد على الفطرة مسلماً، وأهلة يهوداً أو ينصاراً ».

قلنا صدقت يا رسول الله ، وأكبر دليل على ذلك هو انسجام فطرة الإنسان مع كلام الله .

بل وأكثر من ذلك ، يأتي الله سبحانه وتعالى ليرينا أن الإنسان هو هو وأنه سيأتي به يوم القيمة .. دون أن يختلط أحد مع أحد .. ويتتساءل الذين لا يؤمنون : كيف يمكن أن يأتي الإنسان بنفسه يوم القيمة دون أن يختلط أحد مع أحد ؟

نقول : إن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا قد أعطانا الدليل في الدنيا .. ولن ندخل في تكوين الإنسان ، ولا في أشياء غيبية .. ولكننا نأخذ الدليل المادي وحده ، فالبشر وهم ملايين .. كلهم مخلوقون على هيئة واحدة .. ولكن كل واحد منهم مميز عن الآخر .. فالابن يعرف ابنه بين ملايين البشر .. والابن يعرف أباه وأمه بين ملايين الرجال والنساء بمجرد

النظر . بمجرد اللمحه تستطيع أن تخرج ابنك أو أباك أو أمك من بين الناس جمياً هذا تمييز للإنسان لا يشترك فيه بقية الخلق .. فائت لا تستطيع أن تميز بقرة عن بقرة أو جمل عن جمل أو أي مخلوق آخر إلا الإنسان .

ولذلك فإن رعاة الفن يرقمونها أو يضعون عليها علامات مميزة حتى يعرفوها .. ولكنهم لا يضعون على أولادهم علامات حتى يميزوهم عن غيرهم من ملايين الصغار .

الإنسان والتمييز

إنما تجد الإنسان مميزاً ببصمة الإصبع .. لا تتشابه بصمة إبهام إنسان مع إنسان آخر رغم وجود بلايين البشر .. ليس هذا فقط .. ولكن لكل منا بصمة رائحة لا تتشابه مع إنسان آخر ونحن لا ندركها .. ولكن كلب الشرطة المدرب هو الذي أعطاه الله ملقة تميزها فيشم رائحة الآخر ، فيخرج هذا الإنسان من بين العشرات بل المئات .

ولكماء عيد التجربة قام كلب الشرطة بإخراج نفس الشخص .. بل إنه مع تقدم العلم وجد أنه لكل إنسان بصمة صوت تميزه عن الآخر .. وبصمة فك خاصة بأسنانه .. كل هذا ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه ميز كل منا بميزات لا يشتر� فيها مع أحد حتى يأتي به يوم البعث هو هو نفسه .

بل إن الله سبحانه وتعالى وضع فينا العدل بالنسبة لأبنائنا رغمًّا عنا فتجد الأب يحب أصغر أبنائه أكثر من الكبار .. لماذا ؟ .. لأن الابن الصغير مهما امتد العمر بالأب سيقضى في رعاية أبيه سنوات أقل من الكبار .. ولذلك أعطاه حناناً أكبر ليعوضه عن هذه السنوات .. حتى يكون خير الأب وعطافه قد وزعا على أبنائه بالعدل ، فعنهم من أخذ عطافاً أقل وسنوات أكثر ، ومنهم من أخذ سنوات أقل وعطافاً أكثر .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى بيان بعض الفيوضات التي شملتها الآية

الكريمة:

﴿وفي انفسكم أفلأ تبصرون﴾

فَالآية أعطتنا بوضوح الدليل المادى من النفس البشرية بأنها تعرف الله بالفطرة .. وتعرف الخير والشر بالفطرة .. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿فَالْفَمَّا لَبَّيْرَهَا وَتَقْوَنَهَا ﴾

(الآية ٨ من سورة الشمس)

وإن هذه النفس بالدليل المادى لا تملك لذاتها نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله .. وإنها منسجمة مع الإيمان بفطرة خلقها .. ومنسجمة مع كلام الله بفطرتها الإيمانية.

على أن الدليل المادى لوجود الله لا يشمل النفس البشرية وحدها .. بل يشمل كل شيء في الكون .. فكل ما في الكون ينطق بأنه لا إله إلا الله .. وفي كل شيء دليل .. وسنبدأ في الفصل القادم بالدليل الغيبي.

الفصل الثالث :

الدليل (الغيبى)

قد يكون عنوان هذا الفصل فيه
تناقض ظاهري مع موضوع
الكتاب .. ذلك أننا لا نتحدث
هنا عن الغيب .. ولكننا نتحدث
عن الأدلة المادية التي يتحكم
فيها العقل وحده ويشهد بها ..
ولذلك قد يقال ما دامت
تتحدثون عن الدليل العقلى على
وجود الله .. فلماذا لجأتم إلى
الغيب ..

نقول : إننا لم نلجم إلى ما هو غيب كالملائكة والجنة والنار وحياة البرزخ إلى غير ذلك مما يغيب عن عقولنا .. ولكننا نأخذ من الدليل المادي ما يؤكد لنا أن الغيب قائم و موجود .. وأننا إن لم ندركه بعقولنا وأبصارنا . فليس معنى ذلك أنه غير موجود يؤدي مهمته في الحياة .. ذلك أن وجود الشيء مختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود .. فقد يوجد الشيء وأنت لا تدركه .. ومع ذلك فهو يؤدي مهمته في الحياة .. ثم تأتي نفحة من رحمة الله تعالى تجعلنا ندرك بعقولنا أن ما حسبنا أنه ليس موجوداً إنما هو موجود وقائم ويؤدي مهمته .

و قبل أن نبدأ الحديث لابد أن نعرف أن هناك نوعين من الغيب .. غياباً نسبياً ، وغياباً مطلقاً .. الغيب النسبي لا يعتبر غياباً في علم الله وحده .. بل يمكن أن يعرفه البشر .. والغيب المطلق لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ما هو الغيب النسبي ؟ .. هو ما لا تعلمه أنت ولكن يعلمه غيرك .. هب أن رئيس الدولة ما اختار أحد الناس ليتولى منصب الوزارة .. ولكن هذا الاختيار لم يبلغ صاحبه .. إذن فهو غيب عن صاحبه .. ولكنه معلوم لرئيس الدولة ومكتبه إلى آخره .. ولنفترض أن لصاً سرق من بيتك شيئاً .. أنت حين اكتشفت السرقة لا تعرف من الذي سرق .. ولا أين المسروقات ولكن الذي سرق يعرف نفسه ويعرف أين أخفى المسروقات .. إلخ .

إذن هذا غيب نسبي .. أى بالنسبة لك ولكنه معلوم بالنسبة لغيرك .. هذا الغيب قد يعرفه بعض الناس .. ولكن الغيب المطلق لا يعرفه أحد .. الله سبحانه وتعالى كشف لنا أنه يعلم الغيب النسبي والغيب المطلق .. وأعطانا الدليل على ذلك حتى نعرف أن ما سبق في هذا الكون موجود

عند الله ، وعلوم ومعد ، بحيث يخرج إلى الدنيا بكلمة كن .. ولذلك فإننا لابد أن نلتفت إلى آيتين كريمتين في القرآن الكريم .. الآية الأولى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿٦٦﴾

(الآية ٨٢ من سورة يس)

أى أن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يظهر لنا شيئاً يمارس مهمته في الحياة .. فإنما يقول له كن .. فيخرج بكلمة كن من علم الله سبحانه وتعالى إلى كون الله فنعرفه. في هذه الآية لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى : « يقول له » وما دام الحق سبحانه وتعالى يقول : « يقول له » .. فمعنى ذلك أن هذا الشيء موجود .. وإلا لما قال الله : « يقول له » .. لأن الخطاب هنا لشيء موجود فعلاً .

إذن فكل أحداث الكون وكل أحداث الدنيا والآخرة موجودة في علم الله سبحانه وتعالى .. فإذا قال لها : « كن » خرجت إلى علم الناس .. ولذلك فإن يوم البعث مثلاً موجود بكل تفاصيله وأحداثه في علم الله .. والجنة موجودة ، وال النار أيضاً موجودة .. لذلك إذا قيل في الحديث الشريف : « هذا رمضان قد جاء ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب النار ، وتغل في فيه الشياطين » .

قد يتساءل البعض كيف يحدث هذا والجنة لم تخلق بعد ، وال النار لم تخلق كذلك .. لأن وقتهما لم يأتي .. نقول لا .. إنهم مخلوقتان في علم الله بكل ما فيهما .. فإذا جاء وقتهما أظهرهما الله .. وفي هذا يلفتنا الحق

سبحانه وتعالى في القرآن الكريم :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مِنْهَا قَلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّ الْأَجْمَعِينَ لَا يَعْلَمُهُمْ بِإِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

(من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف)

أى أن الساعات بكل أحداثها موجودة عند الحق سبحانه وتعالى ..
ولكنه لا يظهرها إلا عندما يشاء .. إذن فكل شيء موجود في علم الله وهو
يظهره متى شاء وكيف شاء .

الآية الثانية قوله تعالى :

﴿أَتَيْ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾

(الآية الأولى من سورة النحل)

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَتَى﴾ أى حدث باستخدام الزمن
الماضى ، ثم يقول : لا تستعجلوه باستخدام الزمن المستقبل .. أليس هذا
تناقضاً ؟ .

الماضى والماضى

نقول : إنه لا يوجد أى تناقض لأن هذا الأمر الذى تتحدث عنه الآية
الكريمة أتى فى علم الله .. أى تقرر .. ومادام قد تقرر فإنه حادث بلاشك
لأنه لا توجد قوة ولا قدرة تستطيع أن تمنع ما يريد الله .. والله سبحانه
وتعالى دائم الوجود لا تأخذه سنة ولا نوم حتى تظن أنه قد يغفل عن شيء
دائم القوة والقدرة .. وكل من فى هذا الكون يستمد قدرته من الله سبحانه
وتعالى .

ولذلك مادام الله هو القاهر فوق عباده جمِيعاً .. فمتن قال : **﴿أَتَى﴾**
 يكون قد حدث فعلا .. أما قوله : **﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾** أى لا تستعجلوا
 ظهوره وخروجه إلى دنياكم المادية .. أو لا تستعجلوا ظهوره لكي يصبح
 مشهوداً لدِيكم .. وهكذا نرى أنه لا يوجد أى تناقض أو تضارب في قوله
 تعالى : **﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾**

ناتئٌ بعد ذلك إلى الدليل الغيبي على وجود الله .. ونبأ الحديث بالدليل
 من الإنسان أولاً ، ومن الأحداث ثانياً ، ومن قضايا الكون ثالثاً .. فتلك
 هي النقاط الثلاث التي سنتحدث عنها في هذا الفصل .. وإن كانت هناك
 نقاط كثيرة لا يتسع المجال لها .. لأننا سنتناول الدليل الكوني ، والدليل
 الاحصائي ، والدليل العلمي وغيره من الأدلة .. ونحن هنا نعطي أمثلة
 يستطيع الناس أن يقيسوا عليها بعد ذلك .. لأنه كما قلنا كل شيء في هذا
 الكون يشهد أنه لا إله إلا الله .. ويشهد بالدليل المادي .

إذا أردنا أن نبدأ بالنفس البشرية .. فإن الله سبحانه وتعالى أعطانا
 الدليل على أنه يعلم غيب النفس البشرية وما تخفيه .. وإذا أردنا أن نبدأ
 بالنفس البشرية فإننا نبدأ بأن الله يسيطر على غيب هذه النفس سبيطة
 كاملة .. ولذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم :

**﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا أَمْرًا مُّسَوَّتًا أَنَّا زَصِيعِهِ فَإِذَا خِفْتَ عَلَيْهِ فَكَلِّفْهُ فِي الْيَمِّ
 وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزِنْ طِبَارَادُوهُ إِلَيْنَا وَجَاءُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧﴾**

(الآية ٧ من سورة التحصص)

إذن خواطر النفس البشرية هي في يد الله سبحانه وتعالى .. والعقل البشري هو في يد الله سبحانه وتعالى يعطيه من الخواطر ما يشاء ، ويمنع عنه ما يشاء ولكن الإنسان خلق حراً في الاختيار .. نقول نعم حر فيما أراد له الله أن يكون حراً فيه وهو المنهج .. ولكنه ليس حرًا حرية مطلقة رغم أن الكثيرين ينكرون هذه الحقيقة .. فالإنسان حر .. نعم فيما قال له الله فيه أفعل ولا تفعل .. هذا نطاق الحرية الأولى في تطبيق المنهج وهو حر في أن ينطق شهادة الإيمان أو أن ينطق شهادة الكفر والعياذ بالله .. وهو حر في أن يفعل ما وضعه الله في منهجه وفي تطبيق هذا المنهج .. ومنهج الله يشمل كل نشاطات الحياة .

فالإسلام ليس مجرد شهادة بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .. تلك هي أركان الإسلام .. الأركان التي بني عليها هذا الدين .

الإسلام أشمل من ذلك بكثير .. ولكن العقل البشري فيما لا يخص المنهج خاضع لطلاقة قدرة الله .

ما هو الدليل على القدرة ؟ ! .

ولكن ما هو الدليل ؟ .. نقول أقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَّ أَلَّى لَهَبٍ وَتَبَّ ١٠ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَا لَهُ وَمَا كَسَبَ ١١ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ١٢ وَامْرَأَةٌ حَمَالَةَ الْحَاطِبِ ١٣ فِي جِيدٍ هَا حَبَلٌ مِنْ مَسَدٍ ١٤ ﴾

هذه السورة الكريمة نزلت في أبي لهب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد كان كافراً رفض الإيمان .. محارباً لدين الله ورسوله .. نزلت هذه السورة وأبو لهب كافر .. وكثير من صناديد قريش وزعماء مكة كانوا كفاراً .. ثم هدأهم الله فأسلموا .. مثل أبي سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم .. وكان من الممكن أن يكون أبو لهب من هؤلاء وأن يهتدى للإسلام .. ولو حدث ذلك لانهدمت قضية الإيمان كلها .. لأن القرآن قال إن أبو لهب سيموت كافراً .. ولكن هناك شيئاً آخر لابد أن نتنبه إليه وهو أن هذا الخبر بغيض .. لأن أبو لهب سيموت كافراً جاء في أمر اختياري أي يخضع ظاهرياً لـإرادة أبي لهب .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن أبو لهب ذهب إلى مكان يجتمع فيه أهل مكة أو دعا زعماء مكة إلى اجتماع وقال لهم : لقد قال عنى محمد في قرآن أدعى أنه ينزل من السماء إنتى سأموت كافراً وسأدخل النار ولكنني أقول أمامكم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .. لتعلموا أن هذا الكلام غير صادق .. وأن محمداً لا يوحى إليه بشئ .

ماذا كان يمكن أن يحدث .. لو نطق أبو لهب بالشهادتين رياه أو نفاقاً ليهدم قضية الدين .. ولكن حتى هذا التصرف الذي كان يمكن أن يخدم قضية الكفر التي كان أبو لهب أكبر أقطابها .. حتى هذا الكلام لم يخطر على عقل أبي لهب ولم يقله .. أليس هذا دليلاً على أن ما يريد الله لابد أن يحدث .. أبوجد تحد أكبر من أن يعطي الله أكبر أعداء الإسلام القضية التي يهدم بها هذا الدين .. ثم لا يستطيع أن يستخدمها .. أليس هذا

دليلاً على أن ما يقضى به الله غيباً لابد أن ينفذ مهما بدا غير ذلك .. وهل يوجد دليل أكبر من ذلك على أن الغيب عند الله لابد أن يقع ؟ .

ثم ثالثى بعد ذلك إلى دليل آخر .. عندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة .. نزل القرآن يقول :

﴿ سَيَقُولُ الْسَّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدُهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة البقرة)

واستخدام حرف السين هنا دليل على أن الأمر لم يحدث بعد .. ولو أنه حدث لقال الله سبحانه وتعالى : قال السفهاء .. ولكن قوله تعالى : سيقول ، دليل على أن ذلك سيحدث مستقبلاً .. والأية نزلت في غير المؤمنين وتلبيت عليهم قبل أن يقولوا .. ولو أنهم فكروا قليلاً لسكتوا ولم يقولوا شيئاً .. وحيثند كان الناس سيساء لون عن قول الله :

ويقولون لم يأت هولاء الذين وصفهم الله بالسفهاء الذين ويقولون : ماؤلهم عن قبليهم .. ولكنهم رغم أنهم يريدون هدم الدين .. ورغم أن الدليل المادى لهدم قضية الإيمان وضع فى أيديهم إلا إنه لم يخطر على بالهم أن يمتنعوا عن القول .. بل جاءوا و قالوا .. لنعلم أن أمر الله وغيب الله لابد أن ينفذ مما كانت هناك إرادة بشرية .

الحق سبحانه وتعالى أعطانا الدليل المادى على صدق قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَأَخْذُرُوهُ ﴾

(من الآية ٢٢٥ من سورة البقرة)

وهذا هو الدليل

فالذين لا يؤمنون لا يصدقون هذا الكلام .. ويقولون أين الدليل العقلى على ذلك ؟ .. نقول إن الدليل العقلى موجود .. فالله سبحانه وتعالى أنزل في القرآن الكريم الدليل على أنه يعلم ما في النفس وما يدور فيها .. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَفَقِّنُونَ قَالُوا شَهَدْنَا إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهِدُ إِنَّ الْمُتَفَقِّنِينَ لَكَذِبُونَ ﴾ (١٠)

(الآية الأولى من سورة المنافقون)

هذه الآية الكريمة قد نزلت عندما جاء عدد من المنافقين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلنوا إسلامهم .. ماذا قال المنافقون ؟ .. قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

وهذه شهادة حق .. لأن الله سبحانه وتعالى يقول والله يعلم إنك لرسوله إذن شهادة المنافقين وافقت علم الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله سبحانه يقول :

كيف يكون المنافقون كاذبين وهم قد شهدوا بما قاله الله سبحانه وتعالى ؟ .. نقول إن الله أراد أن يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم .. أن ما تقوله ألسنة هؤلاء المنافقين لا يوافق ما في قلوبهم .. فهم شهدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة .. ولكن بالأسنتم فقط .. أما قلوبهم فهي منكرا لهذه الرسالة مكذبة بها .. وهكذا أعلن ما في صدور المنافقين وما يخفونه عن الناس .. ولم يجرروا أن يكذبوا ما أعلنه الله .. والقرآن

الكريم فيه آيات كثيرة تعطينا الدليل المادى على أن الله يعلم ما يخفيه الإنسان فى صدره ولو لم ينطق به . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْيَرَوَأَخْفَى﴾ (٧)

(من الآية ٧ من سورة طه)

والسر هو ما يسر به الإنسان إلى غيره .. والسر دائمًا يكون بين اثنين .. وما هو أخفى من السر .. أى ما لا ينطق به الإنسان لأحد بل يبقى فى صدره لا يعلمه أحد غيره والله سبحانه وتعالى يأتى ليفضح الكافرين والمنافقين فيقول :

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يَعْدِنَا اللَّهُ﴾

(من الآية ٨ من سورة المجادلة)

إذن هم لم يقولوا هذا الكلام لأحد .. ولكن قالوه فى أنفسهم فقط ولم ينطق به ألسنتهم .. ولا تحركت به شفاههم .

ولكن الله فضحهم وأنبأ بما فى صدورهم ولم يستطيعوا أن يكذبوا .. ولو أن هذا كان صحيحاً لقالوا لم نقل شيئاً فى أنفسنا .. ولكنهم بهتوا بعلم الله سبحانه وتعالى فلم يستطيعوا الرد عليه ولو بالكذب .

الله حدد من المنتصر

وهكذا يظهر بالدليل المادى أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما فى الصدور وما تخفي الأنفس ولا تعلنه ، وأن الله علیم بما يحرض الإنسان على إخفائه عن الدنيا كلها .. فعلم الله يعتقد إلى غيب النفس البشرية .. وما تحاول أن تكتمه أو تعتقد أن أحداً لا يعلمه .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بدليل مادى آخر .. على أنه هو عالم الغيب .. وأن ما ي قوله حادث ونافذ .. وأن الدنيا كلها لا تستطيع أن تغير قدرأً من أقدار الله .. ويعطينا الدليل المادى على ذلك فيقول تبارك وتعالى :

﴿الرَّ ۚ إِلَيْتِ الرُّومُ ۚ فِي أَذْنِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۚ ۚ فِي بَضْعِ مِنْيَنِ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَ يُبَدِّلُ فَرَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۚ ۚ ۚ﴾

(الآيات من ١ - ٤ من سورة الرم)

وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن أن ينكرها حتى الملحدون .. ولقد نزلت هذه الآية عندما قامت الحرب بين الفرس والروم .. وكانت الدولتان تمثلان أكبر قوة في العالم في ذلك الوقت .. مثل الاتحاد السوفييتي سابقاً وأمريكا الآن .. وقامت الحرب بينهما وهزمت الروم في هذه الحرب .. وعندئذ فرح الكفار لأن الفرس كانوا دولة كافرة تعبد النار .. والروم كانت دولة مسيحية .. أى أهل كتاب .. وحزن المؤمنون لهزيمة الروم لأن الكفر انتصر على قوم هم أهل كتاب .. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يطمئن المؤمنين .. ويهب عنهم الحزن .. فنزلت الآيات الكريمة تبشر بأن الروم سينتصرن بعد بضع سنين .. وفي وقتها راهن المؤمنون الكفار على أن انتصار الروم سيحدث .. وكان من المراهقين سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. الذي راهن بأربعة من الإبل على أن انتصار الروم سيحدث بعد سبع سنين .. ولما مضت هذه المدة ولم يحدث شيء ، فرح المشركون بذلك ، وشق على المسلمين ، فذكر ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما بضع سنين عندكم ، فقالوا: دون العشر ، فقال لأبي بكر:

إذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل .. فما مضت السنتان حتى انتصر الروم على الفرس .. ففرح المسلمون بذلك .. ثم نهى الرسول أبا بكر ونهى الصحابة عن المراهنة .. وقال ابن الإسلام لا يقرها ولا يسمح بها ..

من الذي يستطيع أن يتتبأّ بنتيجة معركة حربية ستحدث بعد تسع سنوات ؟ .. وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس عقداً صلحاً خلال هذه السنوات التسع .. أو أن الفرس استعدوا استعداداً قوياً لهذه الحرب وهزموا الروم مرة أخرى .. ومن الذي يستطيع أن يضمن نتيجة معركة حربية ستحدث بعد هذه الفترة الطويلة .. بل إن أحداً لا يستطيع أن يتتبأّ بنتيجة معركة حربية ستحدث بعد لحظات .. بل إن كل قائد لأى معركة حربية لا يكون واثقاً من النصر قبل أن تبدأ المعركة .. أو حتى عندما تبدأ .. فلو علم أى قائد لمعركة حربية أنه سيهزم لما دخلها ..

يأْتِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيُعْطِينَا الدَّلِيلَ الْمَادِيَ عَلَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عِلْمَ الْيَقِينِ .. فَيَبْيَثُنَا بِنَتْيَاجَةِ مَعْرِكَةٍ لَا بَيْنَ قُوَّتَيْنِ مَحْدُودَتَيْنِ .. وَلَكِنْ بَيْنَ دُوَلَتَيْنِ عَظَمَيْنِ .. وَيَبْيَثُنَا عَنْ نَتْيَاجَةِ هَذِهِ الْمَعْرِكَةِ قَبْلَ أَنْ تَبْدُأْ بِتَسْعَ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ .. وَيَخْبُرُنَا مِنَ الَّذِي سَيَنْتَصِرُ وَمِنَ الَّذِي سَيَهْزُمُ .. وَتَأْتِي الْأَحْدَاثُ وَتَقْعُدُ الْحَرْبُ .. وَيَنْتَصِرُ الرُّومُ وَيَهْزُمُ الْفَرْسَ كَمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .. وَمَاذَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَوْ أَنَّ الْفَرْسَ انتَصَرُوا عَلَى الرُّومِ .. وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ الْمُتَعَبِّدُ بِتَلَوِّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. وَكَيْفَ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَقْفِي الْمُصْلُونَ فِي الْمَسَاجِدِ وَيَقْرَأُوا سُورَةَ الرُّومِ فِي الصَّلَاةِ .. مَعَ أَنَّ نَتْيَاجَةَ الْحَرْبِ قَدْ اخْتَلَفَتْ عَمَّا جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ..

وهكذا نرى مدى الإعجاز في أن الله سبحانه وتعالى .. قد بين لنا الدليل المادي على أنه يعلم الغيب .. وأن علمه للفيسبوك علم يقين لا بد أن يحدث وأن يتم .. وأنه مسيطر على أمور الدنيا كلها .. حتى في تلك الأشياء التي لا يمكن أن يتمنى بنتيجتها أحد قبل حدوثها بسنتين .. بل لا يمكن أن يتمنى بنتيجتها أحد حتى ساعة حدوثها، أليس هذا دليلاً مادياً على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يسير الأمر في كونه .. وهو الذي إذا قال كن يكون .. أليس هذا دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى إذا قال :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ٨٢

(الآية ٨٢ من سورة يس)

قول من إله خالق ومسطير قادر على كل أحداث كونه .. فإذا عرفنا ذلك بالدليل المادي .. ألا نفهم معنى الآية الكريمة :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا قَسْطَعْلُوْهُ ﴾

ونصدق يقيناً بأن الله سبحانه وتعالى وحده هو رب وله هذا الكون ..

الوجود وإدراك الوجود

على أننا لا بد أن ننتقل بعد ذلك إلى نقطة هامة جداً .. وهي أن عدم إدراكنا لوجود الشيء .. لا يعني أن هذا الشيء غير موجود .. فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن الملائكة وعن الجنة وعن النار وعن الشياطين .. فلابد أن نصدق .. ليس بالدليل الإيمانى فقط .. لأن القائل هو الله .. ولكنه سبحانه وتعالى في تحدٍ أعطى الدليل المادي لغير المؤمن به على أن الغيب

موجود وإن لم نكن ندرك وجوده .. وأعطاه لنا من أحداث هذا الكون وما يقع فيه من ماديات ..

فإذا أخذنا مثلاً الجراثيم تلك المخلوقات الدقيقة التي تهاجم جسد الإنسان وتصيبه بالمرض .. هذه الجراثيم عاشت مع الإنسان عمره كله .. ولكننا في أول الحياة البشرية وحتى فترة قصيرة لم نكن نعرف عنها شيئاً.

ثم تقدم العلم وتوصل العلماء إلى الميكروسكوبات الالكترونية التي تكبر حجم الشئ ملايين المرات .. فماذا رأينا ؟ .. رأينا عجباً .. ميكروبات لها شكل وله احركة .. ولها حياة ولها تناقل وتكاثر .. ولها طريقة لتخترق جسم الإنسان وتصل إلى الدم .. ولها تفاعلات مع كرات الدم ..

عالم كبير لم نكن نعرف عنه شيئاً بل كان غيباً عنا منذ مائة سنة .. ومع ذلك .. ومع كونه كان غيباً عنا فهل لم يكن موجوداً ؟ .. لا .. بل كان موجوداً يؤدي مهمته في الحياة ..

وكان العلماء في الماضي يعتقدون أن المرض معناه أن الأرواح الشريرة قد تلبست جسد الإنسان .. وكانوا يضربون المرضى أو يكونون أجزاء من أجسادهم حتى تخرج هذه الأرواح الشريرة ثم تقدم العلم واستطعنا أن نرى رؤية العين هذه الجراثيم ، وهي تتحرك وتناسل .. وتخترق وتحارب .. بل استطعنا في تجاربنا العلمية أن ندخل هذه الجراثيم إلى أجساد الحيوانات .. لندرس نورة حياتها وكيفية القضاء عليها ..

وهكذا أعطانا الله الدليل المادى على أن ما هو غيب عنا موجود ويؤدى مهمته في الحياة .. وأن عدم إدراكنا لوجوده لا يعني عدم هذا الوجود.

وإذا نظرنا إلى قطرة الماء الذي نشربه تحت الميكروسكوب لوجدنا فيها أشياء عجيبة .. أشياء فيها حياة ولها حركة .. ولها كيان ولها دور في الحياة .. ولكننا لم نكن نعرف منذ فترة قصيرة أن هذه الأشياء موجودة فهل كان هذا شهادة بعدم وجودها .. أم أنها كانت في الحقيقة موجودة .. ولكننا لا ندرك هذا الوجود .

فإذا انتقلنا إلى الكون كله .. وجدناه يشهد أن الوجود شيء وإدراك الوجود شيء آخر تماماً .. وأن ما لا ندرك وجوده يؤدى مهمته في الكون .. فلننظر مثلاً إلى الأقمار الصناعية والإرسال التليفزيوني .. هل كان أحد يعرف أن ما يقع في مكان ما في العالم يستطيع العالم كله أن يشهده وفي نفس لحظة حدوثه ؟ .. طبعاً لم يكن أحد يعرف ذلك .

ثم كشف الله سبحانه وتعالى لنا من علمه ما مكتننا من أن نعرف أنه موجود في الكون من الخصائص ما يمكن أن يجعل الإنسان في كل الدنيا ليرى ويشهد ما يقع في مكان ما وقت حدوثه .. ويرى الإنسان وهو ينزل على القمر وهو يمشي فوقه ..

كيف توصل الإنسان إلى هذا التقدم العلمي ؟ .. هل اخترع غلافاً جوياً يستطيع أن ينقل الصور ؟ .. هل جاء بمواد من خارج الأرض .. أو بمواد من خارج خلق الله ليصنع منها الأقمار الصناعية التي حققت هذه الاتصالات ؟ .. طبعاً لا .. ولا يستطيع أن يقول ولا حتى أكبر الماديين أن

هذه الخصائص التي استخدمت قد أوجدها الإنسان وخلقها .. ولكن الغلاف الجوى والمواد في الأرض موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها ولكن خصائصها كانت غيба عنا .

وعندما جاءت مشيئة الله لتشفها لنا وجدنا شيئاً عجباً فاستخدمناه فأعطانا ما نحن فيه من تقدم علمي .. أيسستطيع أحد أن ينكر خصائص الكون وأنها كانت موجودة .. قبل أن يعلمنا الله كيف نستخدمها وفيما نستخدمها .. لا يستطيع أى مكابر أن يقول إنها لم تكن موجودة .. بل كانت موجودة ولكنها غيب عنا .. فلما أرادنا الله أن نعلمها كشفها لنا لنعلم أن ما هو غيب موجود .. رغم أننا لم نكن ندرك وجوده .

فإذا نظرنا إلى ما في السموات .. نجد أننا كلما استطعنا أن نصنع ميكروسكوباً أضخم وأقوى .. استطعنا أن نكشف أجراماً سماوية جديدة وزرها لأول مرة .. هل كانت هذه الأجرام التي لم نكن نعرف عنها شيئاً غير موجودة ؟ .. أو لم تكن تؤدي مهمتها في الكون ؟ .. كانت موجودة وكانت تؤدي مهمتها في الكون .. ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى وجودها عنا إلى أجل حده .. فلما جاء الأجل كشف لنا هذا الوجود فعرفناه حتى نعلم أن ما هو غيب عنا موجود يؤدي مهمته في الكون ولو لم ندرك وجوده

حياة البشر ووجود الخالق

بل إن الله سبحانه وتعالى .. أراد أن تكون الحياة الإنسانية كلها شاهدة على أن الغيب موجود .. أرادنا أن نكون شهاداء على أنفسنا حتى

لا نأنتي يوم القيمة .. ونقول : يارب لم تعطينا الدليل العقلى على أن ما هو غيب عنا موجود .. فضلت عقولنا .. يارب لو أعطيتنا الدليل لكننا أمنا .. ولذلك جاءت حياة البشر كلها شاهدة على ذلك . فالله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان وحده القدرة على أن يرث الحضارة ويضيف عليها .. في حين سلب ذلك من كل مخلوقاته .. ولذلك ترى أن حياة الحيوان مثلا كما هي منذ بدء الخليقة لم تتقدم .. فلم نسمع عن أن مجموعة من القرود مثلا قد عقدت اجتماعاً لترتقي بوسائل حياتها .. وتبني لنفسها أماكن مكيفة الهواء تقيها حرارة الجو في المناطق الاستوائية ..

إننا لم نسمع أن مجموعة من الحيوانات القطبية قد جلست معاً لتختبر وسائل تدفئة تقيها برد الشتاء القارس الذي يبيدها ويغبنيها و يجعلها تتضور جرعاً .. ولم نسمع عن مجموعة من الحيوانات جلست تداول للوصول إلى دواء لمرض يفتك بها .. أو للوصول إلى مبيد لحشرة تنقل لها الأمراض .. بل الرقى في حياة الحيوان أو النبات الذي يضعه هو العقل البشري ..

ولكن الإنسان مختلف عن ذلك تماماً .. فالعقل البشري قد أعطاه الله سبحانه وتعالى ميزة وراثة الحضارة البشرية .. فكل جيل يبدأ حياته من حيث انتهى الجيل الذي قبله .. ثم يضيف إليها .. وقدرة العقل البشري على استيعاب التقدم العلمي لا حدود لها .. ولذلك فإن كل جيل من البشر يعرف شيئاً كان غيباً عن الجيل الذي قبله .. وكل جيل من البشر يتبع الله سبحانه وتعالى له من أسرار ما وضعه في كونه ومن قوانين هذا الكون ما لم يتع للجيل الذي قبله ..

وإذا كان هذا الجيل هو جيل الكمبيوتر مثلا .. فإن الجيل القادم سيكشف الله له من أسرار هذا الكون ما يعطيه علمًا يجعل أجهزة الكمبيوتر الحالية شيئاً من مخلفات الماضي .. وهكذا ترتقي الحضارات .

وكما تقدم الزمن كانت سرعة ارتقاء الحضارات البشرية أكبر .. لأن إضافات مستمرة تحدث لهذه الحضارات .. وكل إضافة تفتح الطريق أمام إضافة أكبر .

لماذا أعطى الله سبحانه وتعالى البشرية وحدها .. هذه القدرة على الرقي الإنساني .. لتعرف جميماً ونحن الذين أعطينا الاختيار في أن نؤمن أو لا نؤمن .. لنعرف جميماً أن الجمود الفعلى في أن ما هو غيب عنا غير موجود هو خرافه .. ونحس في حياتنا كل يوم بأن هناك غيباً عنا يصبح واقعاً معلوماً .. ونرى المعجزة تحدث أمام أعيننا مرات ومرات .. ونشهدها ببرؤية اليقين .. علنا نتدبر ونفكر قليلاً ، فنعلم أن الله سبحانه وتعالى بحكمته ورحمته .. قد أعطانا الدليل المادى على أن ما هو غيب عنا موجود .

فإذا أخبرنا بغير لا ننكره .. ولكننا نؤمن بوجوده .. وبيان قدراتنا الحالية لا تصل إليه ولكنها قد تصل إليه في المستقبل ..

وفي ذلك يلفتنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿سَرِّيْهُمْ إِنَّنِيْنَافِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبْيَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(الآية ٥٢ من سورة نصبات)

ونعرف معنى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَنَّ إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدْرُونَ عَلَيْهَا أَتَنَّهَا أَمْرَنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفْتَ يَا أَلَّا مِنْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِّرُونَ ﴾ (٢٤)

(الآية ٢٤ من سورة يس)

وهكذا ونحن نراقب مسيرة الحضارة البشرية نعلم أن الله قد أخبرنا أن هذه الحضارة ستترتقى وترتفق بما يكشفه الله لنا من قوانين هذا الكون حتى نظن أننا قادرون على أن نفعل ما نشاء في الأرض .. وهذا الظن ليس حقيقة ولكنه مجرد ظن .. لأن الله الذي كشف لنا هذه القوانين لم يخضعها لإرادتنا .. ولكنه سبحانه سخرها لنا فقط لنفعل بها ما نشاء ..

فإذا اغتر الإنسان واعتقد أن هذه القوانين من صنعه .. أو أنه أخضعها بذاتية علمه وبدون أمر الله تبارك وتعالى .. يأمر الله سبحانه وتعالى هذه القوانين أن تخرج عن أمر الإنسان فتدمره وتقوم الساعة ..

الله أخبرنا بكنوز الأرض

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن دليل غيبي آخر يزيد من الأدلة العقلية التي تثبت وجود الله .. فلابد أن نقرأ قوله تعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مَا وَمَا تَحْتَ الْأَرْضَ ﴾ (٦)

(الآية ٦ من سورة ملئك)

فلو قرأنا هذه الآية التي نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .. لعلمنا
أن أحداً لم يكن يدرى شيئاً ولفتره طوله عن معنى قوله تعالى :

﴿وَمَا تَحْتَ الْثَّرَى﴾

وكان كل ما تحت الثرى أو تحت التراب أو في باطن الأرض غياباً عنا
ثم أراد الله سبحانه وتعالى .. أن يكشف لنا أن ما هو غيب عنا موجود ..
وإن لم نكن ندرى بوجوده .. فكشف لنا ما تحت الثرى .. فوجدنا أن ما
تحت الأرض يحتوى على كنوز رهيبة .. وجدنا البترول والذهب والمعادن
والحديد وأشياء نفيسة .. وجدنا المياه الجوفية .. وجدنا عالماً هائلاً
يحتوى على مواد لم نكن نعلم بوجودها ولا نعرف شيئاً عنها ..

وهكذا أعطانا الحق سبحانه وتعالى دليلاً آخر على أن ما هو غيب عنا
موجود .. وإن كنا لا ندرك وجوده .. فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن
يدعى أنه هو الذي أوجد ما في باطن الأرض من كنوز .. ولا أحد مهما
بلغ علمه ولا علماء الأرض مجتمعين يستطيعون أن يدعوا أنهم هم الذين
أوجدوا هذه البحيرات الهائلة من البترول .. أو هذه المعادن النفيسة
كالذهب والفضة .. أو الماس أو النحاس أو الحديد أو الأمونيوم أو غيرها ..

بل إن هناك كنوزاً تحت الثرى مخفية عن أعيننا تفوق الكنوز التي
هي ظاهرة لأعيننا فوق سطح الأرض .. وهذه الكنوز لم تأت من عدم ولم
توجد في السنوات الأخيرة .. بل كانت موجودة في باطن الأرض منذ أن
خلقها الله سبحانه وتعالى .. ولكنها كانت غياباً عنا فلم نكن نعرف
بوجودها ..

حينئذ تكون قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى .. قد أعطانا من الأدلة المادية والعقلية ما يؤكد لنا أن ما هو غيب عنا موجود وإن لم نكن ندرك وجوده .

فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عما هو غيب عنا كالآخرة والحساب والجنة والنار .. لا نقول إن الله يخاطبنا بما لا نستطيع أن تدركه عقولنا .. وأننا لا نستطيع تصديق ذلك .. بل نعود إلى واقع الكون .. ونتأمل ما فيه من آيات .. وما وضعه الله لنا فيه من دلائل .. ولو أننا تدبّرنا لقىنا يارب لقد أعطينا مع الدليل الإيمانى الدليل الفعلى الذى يقرب الصورة إلى أذهاننا حتى ندركها .. وليس لنا عذر يارب يوم الحساب .. فى أن نقول إن عقولنا لم تدرك ، لأنك وضعت فى كونك الأدلة المادية التى تثبت أن الغيب واقع و موجود .. وكان يجب أن تكون هذه الأدلة هى طريقنا إلى الإيمان .. لا طريقنا إلى الكفر والإلحاد .

على أننا سنتنقل بعد ذلك إلى الآيات الأرضية .. التى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا بها .. إلى أنه لا إله إلا هو الخالق والموجد والقادر .

الفصل الرابع:

وفي الأرض لِيَن

لَهُ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى لَهُ أَيَّاتٌ تَمْلَأُ
الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ وَلَكُنَّا غَافِلُونَ
عَنْهَا .. وَمِنَ الْإِعْجَازِ الْإِلَهِيِّ أَنَّ
أَيَّاتَ اللَّهِ لَا تَنْتَهِي .. فَبِاِذَا
مَشَيْتَ فِي الطَّرِيقِ فَهُنَّاكَ أَيَّاتٌ
وَإِذَا صَعَدْتَ إِلَى الْجَبَلِ فَهُنَّاكَ
أَيَّاتٌ .. وَإِذَا نَزَلْتَ إِلَى قَاعِ
الْبَحْرِ وَجَدْتَ أَيَّاتٌ .. وَإِذَا
صَعَدْتَ إِلَى السَّمَاوَاتِ كَانَتْ هُنَّاكَ
أَكْثَرٌ مِّنْ أَيَّةٍ .

وإذا نزلت إلى باطن الأرض فهناك آيات وأيات .. هناك آية في تلك الشجيرة الصغيرة التي تراها تنبت في سطح الجبل .. ساقها هشة لينة ربما لا تحتمل قبضة يدك ومع هذا فقد فتت الصخر ونبتت فيه .. واستطاعت الشجيرة الرقيقة الرقيقة أن تتمتد وتضرب في باطن الجبل وتحصل على الغذاء ..

وتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك .. مع أنك لو أردت أن تضع ثقبا في سطح الجبل لاحتاجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة .. وتعرف أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقها قد ألان لها الصخر فنبتت فيه .. وأن لأن جذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذي يعطيها الغذاء ..

هذه الآيات لا تحتاج إلى بحث ولا إلى ميكروسكوب .. ولكنها تحتاج مجرد التأمل .. وفي الأرض آيات كثيرة لا تحتاج منا أكثر من أن نتأملها لنعرف قدرة الله وعظمته ونؤمن به .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَوْا ﴾

(الآية ٢٨ من سورة فاطر)

لماذا خص الله العلماء بالخشية ؟ لأنهم وهم يبحثون في مخلوقات الله في الأرض .. يرون أسرارا ودقة خلق وإبداع تكفين كان يجب أن يجعلهم أول الساجدين لله .. أول العابدين لله .. ولكن هؤلاء العلماء الماديين بدلا من أن يفعلوا ذلك .. أخنوا يحاولون النيل من الدين ومن الإيمان .. والإنسان يعتقد أنه وصل إلى أسرار الكون .. ولكنه في الحقيقة

لم يصل حتى إلى أسرار نفسه .. بل إنه ينتقل من قانون إلى قانون ولا يعرف كيف ينتقل .. ولا ما هو سر هذا الانتقال.

فإنسان وهو مستيقظ له قوانين ربما عرفنا بعضها .. ولكنه إذا نام انتقل إلى قانون مختلف تماماً مجهول له .. فهو يخرج من الزمن .. فإنسان وهو نائم لا يحس بالزمن .. فإذا استيقظ فهو لا يعرف كم ساعة نامها ولابد أن ينظر إلى ساعته ليعرف كم ساعة قضتها وهو غائب عما حوله .

إذن قانون الزمن لا يسرى على النائم فلا يحس بالوقت .. لماذا؟ .. لأن الزمن هو قياس للأحداث .. فنحن نقيس الأحداث بالزمن .. والنائم هو خارج عن هذه الأحداث .

والإنسان إذا نام رأى وعيشه مغمضتان .. ومشى وجرى وقدماه لا تتحركان من فوق السرير .. وتحدث لسانه لم يتحرك .. ورأى وتكلم مع أناس انتقلوا إلى العالم الآخر منذ سنوات .. ومع ذلك فهو يحدثهم ويسمعهم وهم يكلمونه ويفهم ما يقولون .. والعلم خارج هذه المنطقة تماماً فلا يستطيع عالم أن يخبرنا كيف يرى الإنسان وهو نائم .. أو يتحرك أو يلتقي مع أناس انتقلوا للعالم الآخر .. وكل ما جاء عن هذا في محاولات أطلق عليها اسم العلم .. إنما هي تخمينات بلا دليل ومعظمها من الخيال أكثر من الواقع .. ومع أن كل هذا يحدث لكل منا ويحدث كل يوم .. تجد هناك من يعلن بوقاحة .. ويقول انتهى عصر الدين وجاء عصر العلم .. وهؤلاء إنما يقولون بهتانا .. فالله هو الكاشف لعباده عن العلم .. هو القائل في كتابه الكريم :

﴿أَقْرَأْتَ رِبَّكَ الْأَكْرَمَ ﴿الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْبِ﴾ ﴿عَلِمَ الْإِنْسَنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾
 (الآيات ٢ و ٤ و سورة العلق)

لِمَذَا لَا يُؤْمِنُونَ؟

ولكن الناس لا يؤمنون .. رغم أن هناك من الأدلة المادية في الكون ما لا يعد ولا يحصى .. تهدي الناس إلى طريق الإيمان وإلى وجود الله .. وهؤلاء الذين لا يؤمنون بعضهم منكر للدين لأنه يريد أن يكون هو مصدر التشريع ، لأن منهج الله سبحانه وتعالى قائم على العدل بين الناس .. وأنعطي كل ذي حق حقه .. وهم يريدون أن يتميزوا وأن يأخذوا حقوق غيرهم .. ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يضعوا منها من صنفهم .. يعطىهم كل شيء ويسلب غيرهم كل شيء .. والطريقة الوحيدة لذلك هي أن ينكروا منهج السماء ..

والقسم الثاني فضل أن يعيش مع النعمة بدلاً من أن يعيش مع المنع .. وهؤلاء الناس الذين متعمقون الله سبحانه وتعالى بنعمة في الدنيا لم يفكروا كيف جات هذه النعم ولكنهم أراؤوا أن يأخذوا من النعم كل ما يستطيعون .. وأعمامهم الطمع الإنساني .. فلم يفكروا إلا في الحصول على نعمة المال أو نعمة السلطة أو غيرها من نعم الكون .. وهؤلاء شغلوا أنفسهم بال المادة بدلاً من أن يفكروا في مين خلق المادة .. وأخذوا النعم في أنها حق لهم دون أن يبحثوا عن أوجدها . فرغم أن قوانينهم المادية التي يؤمنون بها .. نقول : إن لا شيء يحدث في الدنيا بدون فاعل .. فلم نجد مثلاً عمارة نشأت هكذا دون أن يكون لها مهندس وعمال وغير ذلك من أقاموها .. ولم يجلسوا في بيوتهم مثلاً ليجدوا كمية من المال ظهرت

أمامهم فجأة .. وكل مصالحهم لابد أن يتحركوا لقضائهما.

ومع أن قانون المادة يقول إن لا يوجد فعل بدون فاعل .. فإنهم لم يطبقوا هذا القانون على الكون كله .. بل ادعوا أن الكون قد خلق بدون فاعل .. بعضهم قال : حدث هذا بتفاعل المواد !! .. ولو انصفوا لسؤالاً أنفسهم من الذي أوجد المادة أولاً ومن الذي حرکها ثانياً .. ولكنهم تناسوا هذا السؤال !

وحتى إذا صدمتهم آية من آيات الله تكبروا عليها .. ولعل هذا واضح في العالم الغربي الذي يحاول الفصل بين العلم والدين فصلاً تاماً .. وربما كان السبب في ذلك هو المعركة الرهيبة التي قامت بين العلم والكنيسة واستمرت أكثر من قرنين .. وقد كانت الكنيسة تنكر العلم تماماً استناداً إلى التوراة وهي الكتاب المقدس لليهود، والذي تؤمن به الكنيسة. وما جاء في التوراة يقول إن شجرة التفاح التي أكل منها آدم هي شجرة المعرفة .. وإنه حينما أكل آدم التفاحة .. كشفت له علوم كثيرة فغضب الله عليه وطرده من الجنة .. وكانت هذه هي المعصية الأولى التي مازالت البشرية تعاني منها حتى الآن .. والتي نكفر عنها بحياتنا في الأرض المليئة بالشقاء .. ولو لم يأكل آدم تفاحة المعرفة لكان حتى الآن نعيش في الجنة .

هذه الخرافية المحرفة هي التي أدت إلى المعركة بين الكنيسة والعلم .. تلك المعركة التي تعرض فيها العالم الإيطالي جاليليو جاليلى في القرن الخامس عشر إلى غضب الكنيسة عندما أثبت بالأدلة المادية كروية الأرض وأصدرت الكنيسة حكماً بحرقه حياً لأنه كفر .. وأضطر العالم الإيطالي

أن ينكر ما اكتشفه.

ولكن موقف الإسلام مختلف .. ذلك أن التفاحة التي أكلها آدم هي منهج الشيطان الذي أظهر عوراته وكشفها .. كما يظهر تزيين الشيطان للناس في الدنيا عوراتهم فيكشفها فيصيبهم الخزي والعار..

العلم كاشف لقوانين الكون

أما العلم فالإسلام ينظر إليه على أنه من الله أولا .. فالله يكتشف آيات في الأرض للإنسان .. والإنسان يكتشف ولا يخلق أو يضع في الكون قوانين جديدة من صنعه .. ولكن الله يكشف لم يشاء قوانين كونه وكل قانون وكشف ميلاد .. فإذا جاء ميلاد كشف لقانون كوني .. كشفه الله من يبحث عنه من البشر فيعرفونه ويستخدمونه.

والله سبحانه وتعالى الذي قال : ﴿عِلْمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

يجب أن نعرف أن كل علم هو من الله .. والله سبحانه وتعالى ميز الإنسان على الملائكة بالعلم .. فقال جل جلاله :

﴿وَعَلِمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضُوهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالُوا أَنْتُمْ فِي إِنْسَانٍ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾٢١﴿ قَالُوا سُبْعَهُنَّكَ لَا يَعْلَمُ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْغَنِيمُ ﴾٢٢﴿ قَالَ يَتَعَادُمُ أَنْتُمْ هُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَلْبَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَنَّمَا أَقْلَلَ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبَدِّلُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُونُ ﴾٢٣﴾

(الآيات من ٢١ - ٢٣ من سورة البقرة)

هذا هو موقف الإسلام من العلم .. وإن كان للكنيسة موقف آخر في معركة استمرت قرنين كاملين بين الكنيسة والعلماء .. وعندما انتصر العلماء عملوا على تضييق نفوذ الكنيسة بحيث أصبحت لا يدخل لها بالعلم .. وفصلوا الدين عن الدولة إلى آخر ما يرويه التاريخ.

والعلماء في أبحاثهم يحاولون إنكار دور الدين إيماناً بذاتيتهم ، فهم ي يريدون أن يقولوا نحن فعلنا ونحن اكتشفنا .. كما قال فارون :

﴿فَالْإِنْسَانُ أَوْتَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

(الآية ٧٨ من سورة القصص)

ولذلك فليس في بالهم الله وسيفاجئون بالله سبحانه وتعالى في الآخرة .. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كُرَبَّاً بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَنَانُ مَاءَ حَنَّ

إِذَا جَاءَهُمْ وَلَمْ يَحْدُهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ

سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

(الآية ٢٩ من سورة النور)

ولا يحسب أحد أن هؤلاء الذين كفروا فعلوا ذلك لأن آيات الله لم تصل إليهم .. بل الآيات أمامهم ولكنهم هم الذين يتکبرون على الإيمان .. ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ رَّبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

(الآية ٤ من سورة الأنعام)

ولذلك فإن إعراضهم ليس على أن الدليل المادى على وجود الله غائب عنهم ولكن لأنهم يرفضون الإيمان .. أما ليخققوا مصالح ذاتية .. وإنما لأنهم لا يؤمنون بالآخرة .. فيحاولون أن يأخذوا كل ما تعطى لهم الدنيا على أن هذا هو كل شيء .. وتكون النتيجة أنهم يستخدمو من كل الوسائل حلالاً أو حراماً في الوصول إلى أهدافهم .. عملاً بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة.

الإبصار .. كيف يتم؟

ولو أنهم فكروا قليلاً لوجدوا الآيات في القرآن الكريم معجزات .. ولو أنهم كانوا علماء وباحثين فعلاً .. لقرأوا القرآن الذي سمعوا عنه .. ودرسوا الإسلام دراسة غير مفترضة .. ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. وإنهم مثلاً لو التفتوا إلى الآية الكريمة :

﴿فَهَبْنَا آيَةً أَلَّا تَلِي وَجَعَلْنَا آيَةً الْنَّهَارِ مُبَصِّرَةً﴾

(آلية ١٢ من سورة الإسراء)

لعرفوا الإعجاز في هذه الآية وحدها .. وكان الإعجاز فيها كافياً لأن يؤمنوا .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مُبَصِّرَةً﴾

وهكذا وصف الله النهار بأنه هو المبصر .. ولكن هل النهار هو الذي يبصر .. أم العين هي التي تبصر؟ .. الذي نفهمه من تلقائية الإبصار أن العين هي التي تبصر .. ولكن الحقيقة العلمية تختلف .. فلقد ثبت علمياً أن ضوء الشمس ينعكس على الأشياء ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر.

إِنْ فَالْعَيْنُ لَا تَبْصِرُ بِذَاتِهَا وَلَا بِذَاتِيْتِهَا .. وَلَكِنَّهَا تَبْصِرُ بِالضَّوْءِ الَّذِي يَنْعَكِسُ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ أَمَّا مَحَاجَةُ وَيَدْخُلُ إِلَى الْعَيْنِ .. فَإِنَّذِهْبَ هَذَا الضَّوْءِ وَجَاهَ الظَّلَامَ فَإِنَّ الْعَيْنَ لَا تَبْصِرُ وَلَا تَرَى شَيْئًا فِي الظَّلَامِ الدَّامِسِ إِلَّا أَنْ تَأْتِي بِمَصْبَاحٍ أَوْ مَصْدِرًا مِنْ نُورٍ يَلْقَى الضَّوْءَ عَلَى الْأَشْيَاءِ فَيَنْعَكِسُ عَلَى الْعَيْنِ فَتَبْصِرُ.

وَهَذَا نَرَى دَقَّةً تَعْبِيرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مِبْصَرَةً ﴾

فَالْإِبْصَارُ نَسْبَهُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِضَوْءِ النَّهَارِ وَلَمْ يَنْسَبْهُ إِلَى الْعَيْنِ وَلَقَدْ نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْبَشَرُ كُلُّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَتَمُّ الإِبْصَارُ؟ .. مَاذَا كَانَ يَحْدُثُ لَوْ تَقْدُمُ الْعِلْمُ وَكَشْفُ أَنَّ الْعَيْنَ تَبْصِرُ بِذَاتِهَا وَلَا يَسْبَبُ بِانْعَكَاسِ الضَّوْءِ عَلَى الْأَشْيَاءِ .. أَكَنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ نَسْتَطِعُ أَنْ نَقْرَأَ فِي الصَّلَاةِ.

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مِبْصَرَةً ﴾

أَلَمْ يَكُنْ هَذَا كَافِيًّا لِهَدْمِ قَضِيَّةِ الدِّينِ مِنْ أَسَاسِهِ.

وَلَوْ أَنْ هَذَا الْقُرْآنُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الْحَسَنَةُ وَالسَّلَامُ .. فَمَا الَّذِي كَانَ يَجْعَلُهُ يَغْامِرُ بِذِكْرِ قَضِيَّةِ عَلْمِيَّةٍ كَهَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَدْ يَثْبِتُ عَدْمُ صَحَّتِهَا فَيُضَيِّعُ الدِّينَ كُلَّهُ .. وَمَنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ حَتَّى يَعْرُفَ أَنَّ الْإِبْصَارَ يَحْدُثُ بِضَوْءِ النَّهَارِ؟ .. أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا مَادِيًّا كَافِيًّا لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ .. وَلِلْإِيمَانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْخَالِقِ لِهَذَا الْكَوْنِ وَالْعَالَمِ بِأَسْرَارِهِ.

الأَرْضُ كُروِيَّةٌ ..

إن القرآن كلام الله المتعدد بتلاوته إلى يوم القيمة . ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون .. لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل .. ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كلها .. ولكن التصادم يحدث من شيئين عدم فهم حقيقة قرآنية ، أو عدم صحة حقيقة علمية .. فإذا لم نفهم القرآن جيداً وفسرناه بغير ماقرئناه حدث التصادم .. وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم .. ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية ؟ .. سنضرب مثلاً لذلك ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرآنية قد يؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون .. الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدَّنَاهَا﴾

(من الآية ١٩ من سورة العجر)

والد معناه البسيط .. ومعنى ذلك أن الأرض مبسطة .. ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لا تهمنا كل من تحدث عن كروية الأرض بالكفر خصوصاً أننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض ، على هيئة كرة تدور حول نفسها .. نقول إن كل من فهم الآية الكريمة : **﴿وَالْأَرْضَ مَدَدَّنَاهَا﴾**.

يعنى أن الأرض مبسطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة .. ولكن المعنى يجمع الإعجاز اللغوى والإعجاز العلمى معاً ويعطى الحقيقة الظاهرة للعين والحقيقة العلمية المختفية عن العقول فى وقت نزول القرآن .

عندما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا﴾.

أى بسطناها .. أقال أى أرض ؟ .. لا .. لم يحدد أرضاً بعينها .. بل قال الأرض على إطلاقها .. ومعنى ذلك إنك إذا وصلت إلى أى مكان يسمى أرضاً تراها أمامك ممدودة أى منبسطة .. فإذا كنت في خط الاستواء فالارض أمامك منبسطة .. وإذا كنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي .. أو في أمريكا أو أوروبا أو في إفريقيا أو آسيا .. أو في أى بقعة من الأرض .. فإنك تراها أمامك منبسطة .. ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية .. فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على شكل هندسي آخر .. فإنك تصل فيها إلى حافة .. لا ترى أمام الأرض منبسطة .. ولكنك ترى حافة الأرض

ثم الفضاء ..

ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية .. حتى إذا بدأت من أى نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية ثم ظلت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية .. فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائماً منبسطة .. ومادام الأمر كذلك فإنك لا تسير في أى بقعة على الأرض إلا وأنك تراها أمامك منبسطة.

وهكذا كانت الآية الكريمة :

﴿وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا﴾.

لقد فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض .. وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم .. يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية .

ولذلك فإن الذين أساءوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة .. قالوا هناك تصادم بين الدين والعلم .. والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهم صحيحاً قالوا إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية .. وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا .. ولكنهم لا يؤمنون ..

الليل والنهار و جداً معاً

فالقرآن الكريم لم يأت بالدلائل التي تؤكد لنا أن الأرض كروية في آية واحدة .. بل جاء بها في آيات متعددة .. لماذا ؟ .. لأن هذه القضية كونية كبرى .. ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حرفت بشرياً .. فأووجدت تصادماً بين الدين والعلم .. ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطيانا الدليل ثلو الدليل على كروية الأرض .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا إِلَهَ مِنْ يَنْبَغِي لَهَا إِنْ تُدِيرَكَ الْقَمَرُ وَلَا إِلَهٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَلَمْ يَرَهُمْ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح كان موجوداً عند العرب وقت نزول القرآن .. وهو أن الليل يأتي أولاً ثم بعد ذلك يأتي النهار .. أى أن النهار لا يسبق الليل .. ويجبن الحق ليصح هذا الاعتقاد الخاطئ فيقول :

﴿ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾

أى أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل .. ولكن الله يقول لكم : إن الليل أيضاً لا يسبق النهار .. ومعنى أن النهار لا يسبق الليل وأن الليل لا يسبق النهار .. أنهم موجودان معاً على سطح الكرة الأرضية .. وحيث إنه لم يحدث تغيير في خلق الكون أو في القوانين الكونية العليا بعد أن تم الخلق .. بل بقيت ثابتة تسير على نظام دقيق حتى قيام الساعة .. فلو كانت الأرض على شكل هندسي آخر مربع أو مثلث أو غير ذلك .. لكان في ساعة الخلق وجد النهار أولاً .. ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهر معاً في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية .. إلا إذا كانت الأرض كروية .. فيكون نصف الكورة مضيئاً والنصف الآخر مظلماً .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد هذا المعنى .. فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودورانها فقال جل جلاله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٦٢)

(الآية ٦٢ من سورة الفرقان)

ما معنى خلفة ؟ .. معناها أن الليل والنهر يخلف كل منهما الآخر .. فمثلاً في الحراسات المستمرة .. تأتي نوبة حراسة لتخلف نوبة سبقتها ثم تأتي النوبة الثالثة لتخلف الثانية وهكذا .

وإذا فرضنا أن مصنعاً يعمل أربعاءً وعشرين ساعة متتالية .. فأنه يكون هناك أربع ورديةات تخلف كل منها الأخرى .. ولكننا لابد أن ننتبه إلى أنه في كل هذه النظم .. لابد أن تكون هناك وردية هي التي بدأت ولم تخلف أحداً .. فإذا قررنا وضع الحراسة على مكان فإن الوردية الأولى التي تبدأ الحراسة لا تخلف أحداً لأنها البداية . وإذا بدأنا العمل في المصنع فإن الوردية الأولى التي افتتحت العمل لم تخلف أحداً لأنه لم يكن هناك في المصنع عمل قبلها .

وهكذا في كل شيء في الدنيا .. يخلف بعضه بعضاً .. تكون البداية دائماً وليس هناك شيء قبلها تخلفه .. ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً﴾

ومadam الله هو الذي جعل فلابد أن يكون ذلك قد حدث ساعة الخلق .. فلوجد الليل والنهر خلفة على الأرض .. ولكننا كما أوضحتنا .. فإن ساعة البداية في كل شيء لا يكون فيها خلفة .. أي لا يخلف شيء شيئاً قبله .. فهذه هي البدايات .. ولكن الله يقول لنا: إنه في ساعة البداية كان الليل والنهر خلفة .. إذن فلابد أن يكون الليل والنهر قد وجدا معاً ساعة الخلق على الأرض .. بحيث أصبح كل منها خلفة للأخر .. فلم يأت النهر أولاً ثم خلفه الليل .. لأنه في هذه الحالة لا يكون النهر خلفة بل يكون بداية .. ولم يأت الليل أو لا ثم يخلفه النهر لأنه في هذه الحالة لن يكون الليل خلفة بل يكون بداية .. ولا يمكن أن يكون الليل والنهر كل منها خلفة للأخر إلا إذا وجدا معاً.

ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا في أي بقعة من بقاع الأرض.. فلا توجد بقعة هي نهار دائم بلا ليل .. ولا توجد بقعة هي ليل دائم بلا نهار .. بل كل بقعة الأرض فيها ليل وفيها نهار .. ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها .. ووجد الليل والنهار معاً ساعة الخلق فلن يكونا خلفة وإن يخلف أحدهما الآخر .. بل يظل الوضع ثابتاً كما حدث ساعة الخلق .. وبذلك لا يكون النهار خلفة للليل ولا الليل خلفة للنهار.

ولكن لكي يأتي الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر .. فلا بد أن يكون هناك دوران للأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار.. فثبتوا الأرض منذ بداية الخلق لا يجعل الليل والنهار يتعاقبان .. ولكن حركة دوران الأرض حول نفسها هي التي ينتج عنها هذا التعاقب أو هذه الخلفة التي أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً﴾** .
يحمل معنيين.. المعنى الأول : أنهما خلقا معاً .. فلم يسبق أحدهما الآخر.. وهذا إخبار لنا من الله سبحانه وتعالى بأن الأرض كروية.
والمعنى الثاني : أن الأرض تدور حول نفسها.. وبذلك يتعاقب الليل والنهار .

معنى .. كروية الأرض

وهكذا نرى الإعجاز القرآني .. فالقاتل هو الله .. والخالق هو الله ..
والمتكلم هو الله .. فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا إن الأرض كروية
 وأنها تدور حول نفسها .. ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين
الحقيقةين معاً.. هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق
هذا الكون ؟

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليؤكد المعنى في هذه الحقيقة الكونية

لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرى خلقه آياته فيقول :

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الْأَنْهَارِ

وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ السَّمَاءَ وَالْقَمَرَ

كُلُّ يَجْرِي لِأَجْكَلٍ مُسْمَى الْأَهْوَاءِ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

(الآية ٥ من سورة الزمر)

وهكذا يصف الحق سبحانه وتعالى بأن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير .. وبما أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض معاً فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير .. إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية .. بحيث يكون نصف الكرة مظلماً والنصف الآخر مضيناً .. وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيناً والنصف الآخر مظلماً.

فلو أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض غير متساوين في المساحة .. بحيث كان أحدهما يبع شريطاً رفيعاً .. في حين يغطي الآخر معظم المساحة ، ما كان الاثنان معاً على هيئة كرة .. لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل أو مثلث أو مربع .. أو أي شكل هندسي آخر حسب المساحة التي يحتلها فوق سطح الأرض .. وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار .. ولكن قوله تعالى : **﴿يُكَوِّرُ الْأَنْهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ﴾**

دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلاً والنصف الآخر نهاراً .. وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها ..

وجدنا فعلاً أن نصفها ماضٍ ونصفها مظلماً كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى.

فإذا أردنا دليلاً آخر على دوران الأرض حول نفسها لا بد أن نلتفت إلى الآية الكريمة في قوله تعالى :

﴿ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبَهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمْرُّ مِنَ السَّحَابِ ۚ مُصْنَعُ اللَّهِ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَقْوٍ ۝ ﴾

(الآية ٨٨ من سورة النعل)

عندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك تعجب .. لأن الله سبحانه وتعالى يقول : **﴿ تَحْسِبَهَا جَامِدَةً ۝ ﴾**.

ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينية .. ولكن هناك شيئاً خلقه الله سبحانه وتعالى وخفي عن أبصارنا .. فما زدنا نحسب فليست هذه هي الحقيقة .. أى أن مانراه من ثبات الجبال وعدم حركتها .. ليس حقيقة كونية.. وإنما إتقان من الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرة منه بأنه خلق شيئاً جعلنا نراه على غير حقيقته وتلك طلاقة قدرة الخالق .. لأن الجبل ضخم كبير بحيث لا يخفى عن أى عين .. فلو كان حجم الجبل دقيقاً لقلنا لم تدركه أبصارنا كما يجب .. أو أتنا لدقة حجمه لم تلتفت إليه هل هو متحرك أم ثابت .. ولكن الله خلق الجبل ضخماً يراه أقل الناس إبصاراً حتى لا يتحجج أحد بأن بصره ضعيف لا يدرك الأشياء الدقيقة.. وفي نفس الوقت قال لنا أن هذه الجبال الثابتة تمر أمامكم من السحاب.

ولماذا استخدم الحق سبحانه وتعالى حركة السحب وهو يصف لنا تحرك الجبال؟.. لأن السحب ليست لها ذاتية العركة .. فهى لا تتحرك من

مكان إلى آخر بقدرتها الذاتية .. بل لابد أن تتحرك بقوة تحرك الرياح ..
ولو سكنت الريح لم يقق السحب في مكانها بلا حركة .. وكذلك الجبال ..

الله سبحانه وتعالى يريدهنا أن نعرف أن الجبال ليست لها حركة ذاتية.
أى أنها لا تنتقل بذاتها من مكان إلى آخر .. فلا يكون هناك جبل في
أوروبا ، ثم نجده بعد ذلك في أمريكا أو آسيا .. ولكن تحركها يتم بقوة
خارجية عنها هي التي تحركها .. وبما أن الجبال موجودة فوق الأرض ..
فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض نفسها تتحرك ومعها
الجبال التي فوق سطحها ..

وهكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة لأنها لا تغير مكانها .. ولكنها في نفس
الوقت تتحرك لأن الأرض تدور حول نفسها والجبال جزء من الأرض ،
فهي تدور معها تماماً كما تحرك الريح السحاب .. ونحن لا نحس بدوران
ال الأرض حول نفسها .. ولذلك لا نحس أيضاً بحركة الجبال ..

وقوله تعالى : **﴿وَهِيَ تَمَرُّ مِنَ السَّحَابِ﴾**

معناها أن هناك فترة زمنية بين كل فترة تمر فيها .. ذلك لأن السحاب
لا يبقى دائماً بل تأتي فترات ممطرة وفترات جافة وفترات تستطع فيها
الشمس .. وكذلك حركة الجبال تدور وتعود إلى نفس المكان كل فترة ..

وإذا أردنا أن نمضى فالأرض مليئة بالأيات .. ولكننا نحن الذين لا
نتبه .. وإذا نبهنا أحد فإن الكفار يعرضون عن آيات الله .. تماماً كما
حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حين قال له الكفار في قوله
تعالى :

وَقَالُوا إِنَّ نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجِرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونُ
لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِ الْأَرْضِ وَعَنْ بَرِّ فَتَفْجِرُ الْأَنْهَرَ خَلَلَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ
تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا رَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
فَيَأْتِي لَكُمْ ۖ

(من الآيات ٩٠ و ٩١ من سورة الإسراء)

وكان كل هذا معاندة منهم .. لأن الآيات التي نزلت في القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثير الذي يجعلهم يؤمنون .

السير في الأرض

والحقائق الكونية في القرآن الكريم تتواتي .. والآيات تلو الآيات ..
ترى إعجاز الخلق ودقة إخبار الخالق لنا عن أسرار السموات والأرض ..
الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقْبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١١) (آلية ١١ من سورة الأنعام)

عندما نزلت هذه الآية الكريمة أخذتنا معناها على أننا نسير في أنحاء الأرض .. ولم نتبه إلى الحقيقة وهي أننا نسير على الأرض .. أى فوق سطحها وليس في بطنها فكيف يقول لنا الحق : **«سيروا في الأرض»**

ولماذا لم يقل سبّروا على الأرض .. ثم تأتي الحقيقة العلمية وهي أننا فعلاً نسّير في الأرض .. وليس على الأرض .. لأن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض وهو جزء منها .. ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرّجنا من هذا الغلاف الجوي ..

فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض وليس خارج الأرض .. ولكن الذي يخرج من الأرض هي سفن الفضاء التي تتجاوز الغلاف الجوي للأرض .. وبدون تجاوز هذا الغلاف لا تستطيع أن ترى صورة الأرض كاملة .. لأنك مادمت قد أصبحت خارج الشئ تتضمن أمامك الصورة .. فلأن خارج عمارة مثلاً تستطيع أن تعرف شكل العمارة ولكنك من داخلها ومن أي مكان فيها .. لا تستطيع أن ترى الصورة كاملة.

وعلى أية حال .. فإنه علمياً أنت لا تكون خارج الأرض إلا إذا خرست من الغلاف الجوي المحيط بها .. لأن الأرض والغلاف الجوي شئ واحد ..

وقوله تعالى : **﴿سيروا في الأرض﴾**

يجعلنا نتساءل أين نسير ؟ .. نحن نسير حقيقة على سطح الأرض ولكننا نسير في الأرض .. أى بين سطح الأرض والغلاف الجوي .. فما تحتنا هو أرض وما فوقنا هو جزء مكمل للأرض ، وهو الغلاف الجوي .. وهذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في وصفه لحركة الإنسان في الأرض ..

وإذا كان هذا الوصف يعطينا معجزة .. فإن الأرض نفسها تعطينا معجزة أخرى ..

نحن نرى ونمشي في مزارع الأرض وحدائقها .. ونرى أمامنا الأشجار المختلفة والنباتات المختلفة .. ولكن هل يفكر أحد منا في معجزة الخلق في هذه النباتات التي نراها كل يوم .. نحن نعرف أن النباتات تحصل على غذائها بواسطة جذورها الشعرية الدقيقة .. التي تضرب في الأرض .. فتأخذ منها عناصر الغذاء التي تعطيبها النمو والثمر .. هذه الأشجار كيف تتغذى ؟ ! ..

يقول العلماء : إن الغذاء يصعد من جذور النباتات إلى الساق والأوراق والثمار ليغذيها .. بواسطة ما يسمى بالضغط الأسموزي ، أو نظرية الأنابيب الشعرية .. ويدللون على صحة نظرية أنابيب يأتون باناء واسع ويضعون فيه أنابيب شعرية .. فنرى الماء يصعد فيها .. وهكذا أراد العلم أن يفهمنا أن العملية فيها ميكانيكية الغذاء .. دون أن يكون فيها آيات الخلق وإعجاز الخالق .

نقول : إن هذا التفسير العلمي قد أوضاع شيئاً وغابت عنه أشياء .. فالماء يصعد فعلاً في هذه الأنابيب الشعرية .. ولكنه يصعد بكل محتوياته فالأنابيب الشعرية لا تميز بين عناصر الماء .. فتأخذ عنصراً وتترك عنصراً .. ولكن في النبات .. الأمر يختلف تماماً .

الشجر .. وَمَعْجَزَةُ الْخَلْقِ

فالغذاء في الأرض بعناصره كله واحد متجانس .. ولكننا نرى كل شجرة تأخذ من هذا الغذاء ما يناسب ثمارها .. أى أنها تختار العناصر الازمة لها .. وتترك الباقي ولا تأخذه .. ولذلك نرى الزرع ينبع في مكان واحد ويُسقى بماء واحد .. ولكن كل ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم يختلف عن الأخرى .. فهذه حلوة .. وهذه مره .. وهذه صغيرة وهذه كبيرة .. وهذه لونها أحمر وتلك لونها أصفر .. والثالثة لونها أبيض وهذه لها رائحة نفاذة وتلك ليس لها رائحة .. أشكال وألوان مختلفة .. وكل شجرة من هذه الأشجار تأخذ من الأرض ما يناسبها من عناصر التكوين الدقيق لها بكل تفاصيله وتترك الباقي .. ونرى شجرة التفاح ثمرها حلو ورائحتها نفاذة .. ويجانبها الليمون طعمه حامض ويجانبها

الحنظل طعمه مر .. وثمرة نأكلها ونترك ما بداخلها مثل المشمش والخوخ والبلح .. وثمرة فنزر غلافها ولا نأكله ولكننا نرميه كالبرتقال والبطيخ .. وثمرة لها غلاف مش كالبرقوق مثلا .. وثمرة غلافها جامد قوى لا تستطيع أن تزعجه بيده كالجوز واللوز والبندق وجوز الهند .. وثمرة صالحة للتخزين أيام أو أسابيع كثوابع من البطيخ .. وثمرة صالحة للتخزين شهوراً طويلة كالجوز واللوز .

وأستطيع أن أمضى بلا نهاية في وصف أنواع الثمر المختلفة التي تنبت بها الأشجار .. ولكنني أفضل أن أذكر الآية الكريمة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَفِيَ الْأَرْضِ قِطْعًا مُتَجَوِّرًا وَجَتَتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَرَزَعٍ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَيُحِدِّ وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنَ لِقَوْمٍ يَقْلُوْنَ ﴾

(الآية ١ من سورة الرعد)

ونحن نمر على الجنات الموجودة في كل أنحاء الأرض ونرى هذه الآيات .. ثم بعد ذلك نتساءل : أين الدليل المادي على أن الله هو الخالق سبحانه ياربي القائل :

﴿ وَمَا تَأْنِيْهُمْ مِنْ مَا يَرَوْنَ مَا يَنْتَ رَبِّهِمْ إِلَّا كَأُوْلَأَوْنَاهُمْ مُغْرِبِيْنَ ﴾

(الآية ١ من سورة الأنعام)

وصدق الله العظيم في قوله تعالى : ﴿ فَنِلَّا إِلَيْنَاهُ مَا أَكْفَرُوْنَ ﴾

(الآية ١٧ من سورة عبس)

الفصل الخامس:

لله ولها لعافية

الكون مليء بآيات العلم التي
تدل على وجود الله - وليس
معنى ذلك أننا نستدل على
صحة القرآن بالعلم - بل إن
القرآن هو المهيمن والمسيد
وهو الحق .. وما العلم إلا
كماش لقدرة الله في الكون ..
فما جاء به القرآن نحن نؤمن
به إيماناً غبيباً لا يرقى إليه
أى شك ولا نزيد عليه دليلاً ..

لأن دليلنا ويقيتنا أن الله هو الذي قال .. ولكننا نكتب هذا الكتاب لنرد على غير المؤمنين .

ولذلك فنحن نأتي بالحججة والدليل المادي مالا يستطيعون أن يربوا عليه ونحن لا نقدر أن نحيط بكل آيات الله في الكون .. ذلك أن آيات الله أكبر من أن يحيط بها بشر مهما كانت قدرته وعلمه .

وفي جولة تشمل الكون المحيط بنا وحسب قدراتنا البشرية .. سنشتبه أن لله آيات ومعجزات ذكرت في القرآن الكريم .. واعترف غير المؤمنين أنه لا يمكن أن يكون منزل هذه الآيات إلا لله سبحانه وتعالى .. ولذلك فإننا سنحجب الكون لنعطي مثلاً واحداً من عدة أماكن .. ففي خلق الإنسان آيات .. وفي الجبال آيات .. وإذا صعدنا إلى السماء وجدنا آيات .. وإذا نزلنا إلى باطن الأرض كانت هناك آيات .. وإذا غصنا في أعماق البحار كانت هناك آيات .. كل هذا موجود .. نحن سنعطي لمحات .. لأننا إذا أردنا أن نحيط بكل شيء فنحن نحتاج إلى مجلدات كثيرة .

وكما قلت فإن أي تصادم بين القرآن و العلم لا يمكن إلا أن تكون النظرية العلمية خاطئة .. أو يكون فهمنا للقرآن غير سليم .. وقد تحدثنا عن ذلك في الفصل السابق .

الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم :

﴿ سَرِّيْهُمْ ۚ أَيَّنْتَ اِنْتَ فِي الْأَفَاقِ ۚ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقَّ يَبْيَانَ لَهُمْ ۚ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ ﴾

(الآية ٥٢ من سورة نحل)

ومعنى سررهم .. أي سيررون رؤية عين .. ورؤية يقين .. ومعنى قوله تعالى : ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾

هو ان الذين سيرون غير مؤمنين .. والا لو كانوا مؤمنين لعرفوا أنه الحق .. ولا احتاجوا إلى هذا الدليل المادى .. ولذلك فإن عددا من غير المؤمنين سيكشف الله لهم عن آياته في الكون .. فلا يستطيعون أن ينكروا أنها من عند الله .. ولا يستطيعون أن ينكروا ويقولوا أن هذا من عند أى بشر .. ولا يستطيعون أن يدعوا أنها المصادفة .. ولا يمكنهم إلا أن يعترفوا ولكنهم لا يؤمنون ..

ولقد اخترنا في هذا الفصل أقوال عدد من العلماء الغربيين .. كلهم قبل أن يبدأوا الحديث قالوا: إننا علماء لا نصدق إلا ما نرى .. ولا نتعامل إلا مع الأشياء المادية البحتة. ولقد تجنبت الحديث عما قاله علماء مسلمون ولهم كشفهم العلمية .. وبعضهم يعيش في الغرب وله مكانته العلمية .. ذلك أن الإنسان المؤمن مندفع بحماس الإيمان إلى أن يصل إلى نتائج .. لأنه يجب أن يظهر إعجاز القرآن وفيه حماس لأن يجعل غيره يؤمنون .. ولذلك استبعدت كل ما قالوه .. وأخذت من أقوال الذين بدأوا جدتهم بأنه لا علاقة بين العلم والدين .. بل ادعوا أنهم نقيضان لا يلتقيان ..

فالعلم يتحدث عن أشياء واقعية ترى وتشاهد .. والدين يتحدث عن أشياء غيبية يؤمن بها الناس .. وكان هذا في رأيهم هو نقطة عدم الالقاء ولكننا نقول لهم : انه لا إلزام عليكم فأنتم غير مؤمنين .. تستطيعون أن تقولوا إن ما جاء في القرآن يختلف مع العلم ، ذلك أنه لا حرج عليكم فيما تقولون .. وأنتم لن تخالفوا ضمائركم .. ونحن على يقين من أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون .. وأن القرآن الكريم هو كلام الله .. وإذا تكلم الخالق عن كونه فهو أعلم منا جميا ..

معجزة الجنين أذهلت العالم

إذا أردنا أن نبدأ بمعجزة الجنين وما نذكر عنها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .. وما كشفه العلم يقينا وصورة وعرض علينا صوره .. إن علم الأجيال لم يعرفه العالم بشكل واضح إلا في القرن العشرين .. ففي القرن السابع عشر كان العلم يقول : الإنسان يخلق خلقا كاملا في الحيوان المنوى للرجل على صورته الإنسانية .. أى أنك إذا أخذت الحيوان المنوى واستطعت أن تكبره وجدت فيه الإنسان بكل تفاصيله مخلقا خلقا كاملا .. أى أن الإنسان لا يخلق على أطوار في بطن أمه بل يخلق مرة واحدة ..

ولكن في القرن الثامن عشر تغيرت الصورة عندما اكتشفوا بويضة المرأة وركز العلم على دور المرأة في الحمل وأهملوا دور الرجل .. وقالوا: إن بويضة المرأة هي التي فيها الإنسان الكامل لأنها الأكبر .. وأن نطفة الرجل هي مجرد عملية تلقيح فقط لا غير وظل هذا الرأي سائدا حتى القرن العشرين .. وجاء العلم الحديث ليغير الصورة تماما .. ويعطينا صورة جديدة للجنين في بطن أمه .. ويأتي بصور تثبت ذلك .. حتى إن العملية أصبحت أمرا يقينيا لأنه يمكن تصوير الجنين وهو يتتطور وينمو في بطن أمه ..

وكان للقرآن الكريم في هذا كلمة .. ذلك أن القرآن جاء بوصف دقيق لأطوار الجنين منذ أربعة عشر قرنا .. يوم أن كانت الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها لا تعرف شيئا عما في بطن الأم .. وذكر القرآن لهذه الآيات لا يمكن أن ياتي إلا إذا كان هذا القرآن منزلا من عند الله ..

ومحمد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من العلم
البشري شيئاً .. وحتى لو كان يملك قلم يكن علم البشر يعرف شيئاً ..
وكما قلت فإن المخاطرة بذكر شيء علمي في القرآن لا يمكن أن يقدم
عليها بشر .. لماذا ؟ .. لأن القرآن هو كلام الله الذي لا يتغير ولا يتبدل
والمتعدد بتلاوته إلى يوم القيمة .. فكيف يكون موقف الدين .. وموقف
المسلمين إذا ذكر في القرآن شيء يمس العلم البشري .. ثم جاءت
الأبحاث وتقدمت العلوم واكتشفت أن هذا غير صحيح ؟ .. كانت ستضيع
قضية الدين كله .. وما الذي يجعل محمد صلى الله عليه وسلم يخوض في
هذه الأشياء التي كانت البشرية كلها تجهلها .. فيستطيع بإعطاء أعداء
الدين ما يهدمونه به .

خلق الجنين في القرآن

ما زال القرآن الكريم عن أطوار الجنين ؟ .. قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ سُلَّمَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَابِ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مُضْعِفَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْعِفَةَ عَظِيمًا فَكَسَوْنَا الْعَظِيمَ لِغَمَامٍ فَأَنْشَأْنَاهُ خَلَقْنَا مَاءً فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝

(الآيات من ١٤ - ١٢ من سورة المطففين)

فإذا بدأنا بهذه الآية تفصيلا .. فهى تذكر أولا أن خلق الإنسان من طين .. ومعنى ذلك أنها حددت المادة التي خلق منها الإنسان وهي الطين

والطين موجود في كل مكان في الأرض .. والعلماء أخذوا الطين وحللوه .. فوجدوه يتكون من ثمانية عشر عنصرا .. منها الحديد والبوتاسيوم والغفنيوم وغير ذلك من المواد .. ثم درسوا جسم الإنسان فوجدوه يتكون من نفس هذه المواد .. وهي الثمانية عشر عنصرا التي يتكون منها الطين .. وهكذا جاءت الحقيقة الأولى .. حقيقة مشاهدة معملية لا تخضع للجدل .. ثم بدأ القرآن في وصف خلق الإنسان في بطن أمه فتقول الآية الكريمة

﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ﴾

والقرار المكين هو رحم الأم .. ثم تأتي مسألة العلقة .. ونترك الحديث للبروفيسور الكندي كيث ل. مور وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنحة .. ورئيس قسم التشريح والأجنحة بجامعة تورنتو بكندا ورئيس الاتحاد الكندي الأمريكي لعلماء الأجنحة .. وله عدة كتب مترجمة إلى ثمانى لغات .. وهو الحائز على الجائزة الأولى في العالم عن كتابه علم الأجنحة هذه الجائزة التي تعطى لاحسن الكتاب تاليفا ..

قال الدكتور كيث ل. مور إن الجنين عندما يبدأ في النمو في بطن أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة .. وعرض صورة بالأشعة لبدأيه خلق الجنين ومعها صورة للعلقة .. ظهر التشابه واضحا بين الاثنين ولما قيل له : إن العلقة عند العرب معنها الدم المتجمد .. ذهل .. وقال إن ما ذكر في القرآن ليس وصفا دقيقا فقط لشكل الجنين الخارجي .. وإنما وصف دقيق لتكوينه .. ذلك أنه في مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة في العرق الدقيق في شكل الدم المتجمد ..

فإذا جئنا إلى المرحلة الثانية في قوله تعالى: **﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْعِفَةً﴾** نعلم أن القرآن الكريم جاء بالوصف الدقيق .. فعندما عرضت صورة الأشعة المأهولة للجذين وهو في مرحلة المضفة .. وصورة قطعة من المصلصال أو اللبان الممضوغ .. وجد الشكل واحدا .. ثم أظهرت صورة الأشعة التي التقاطت للجذين في مرحلة المضفة وأن فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد تجاوز مرحلة الشكل الخارجي إلى التكوين الداخلي .. فقال جل جلاله :

﴿مُضَعَّفَةً مُخْلَقَةً وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾

(من الآية ٥ من سورة العج)

وعندما جيء بالمضفة الادمية من بطن الأم وطولها سنتيمتر واحد .. وتم تشريحيها تحت الميكروسكوب الإلكتروني .. وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتشكل وبعضها لم يتشكل ، ولو أن القرآن الكريم قال مضفة مخلقة .. لكن ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين .. لأن فيها أجزاء غير مخلقة .

دقة التعبير القرآني

ولو قال القرآن الكريم مضفة غير مخلقة.. لكن ذلك لا يطابق حقيقة التكوين لأن فيها أجزاء مخلقة .. ولكن الوصف الدقيق الوحيد الذي ينطبق على المضفة هو قوله تعالى : **﴿مُضَعَّفَةً مُخْلَقَةً وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾** .

ولقد عرض العالم الكندي كل أطوار الجنين في بطن أمه .. والتي التقاطت بأحدث الأجهزة العلمية ، فإذا هي تتطابق تماما على كل ما ذكر في القرآن الكريم . من مراحل تكوين العظام واللحم إلى غير ذلك .

ولما قيل للدكتور كيث لـ . مور: هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه التفصيات عن أطوار الجنين ؟ .. قال : مستحيل إن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوار .. فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن أن يحددها بهذه السهولة والدقة .. بل إن العلم لم يستطع حتى الآن تسمية أطوار الجنين ، بل أعطاناها أرقاماً بشكل معقد غير مفهوم .. في حين جاءت في القرآن بأسماء محددة ويسيرة وغاية في الدقة يتضح لى أن هذه الأدلة حتماً جاءت لحمد من عند الله .. وهذا يثبت لى أن محمداً رسول الله .. فقيل له : بعد أن قلت ما قلت .. أفلاتسلم ؟ .. فقال إنه مستعد أن يضع في الطبعات القادمة من كتبه إشارة إلى ما علمت . ولقد قرئ معنى الآيات التي جاءت في القرآن الكريم على أكبر علماء الأجنة في العالم .. فلم يجرؤ واحد منهم أن يدعي أن هناك تصادماً بين ما جاء في القرآن الكريم وأحدث ما وصل إليه العلم .

النطفة .. والوراثة

ولكن أحدهم أثار أن الوراثة أو البرنامج الوراثي للإنسان يوجد في نطفة الرجل .. ويتحدد فيها تفاصيل الإنسان الذي سيولد أذكر أم أنتي .. ما هو لون العينين ولون الجلد ولون الشعر إلى آخره .. أى أن الإنسان تكون صفات خلقه موجودة في شفرة خاصة في نطفة الرجل .. فلما قرئت عليه الآية الكريمة :

﴿ قُتِلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْرَهَ ﴾ ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ ﴿ ١٩ ﴾

(الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩ من سورة هيس)

قال : لا يمكن أن يكون هذا إلا من عند الله .

هذه الأبحاث كلها التي ذكرتها وشهادات العلماء مدونة ومسجلة بالصوت والصورة في المؤتمرات المتعاقبة عن الإعجاز في القرآن الكريم .. وهي مؤتمرات عقدت في الدول الإسلامية المختلفة .. ويستطيع كل من يريد أن يرجع إلى هذه الأشرطة ويشاهد هؤلاء العلماء وهم يتحدثون ويتكلمون .. بل إن عالماً منهم شهر إسلامه ، وشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أمام الحاضرين في أحد هذه المؤتمرات وهو البروفيسور التايلاندي تاجاثات تاجاسن .. وهو من أكبر علماء العالم في علم التشريح .. وذلك عندما كان يتحدث عن الأعصاب .. وكيف أنها موجودة تحت الجلد مباشرة .. بحيث إذا احترق الجلد انتهى الإحساس بالألم تماماً .. والله سبحانه وتعالى يقول عن أهل النار :

﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾

(الآية ٦٥ من سورة النساء)

ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن عذاب النار .. عذاب دائم ومستمر لا يخفف ولا يتوقف .. ولما كان في علمه سبحانه وتعالى وهو الخالق .. أن الجلد إذا احترق انتهى إحساس الإنسان بالألم .. نبهنا أن جلد أهل النار كلما احترق بدلهم الله جلوداً غيرها لينتظر شعورهم بالعذاب ..

قدرة القرآن في الحاضر والمستقبل

وعندما عرض معنى هذه الآيات على البروفيسور تاجاثات جاسن .. قال . أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرناً ؟ .. قالوا نعم .. قال إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثاً .. ولا يمكن أن يكون قائلها بشراً .. بل

هي من الله سبحانه وتعالى . حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمدًا رسول الله .

ولنا أن نتأمل في هذه الآية الكريمة :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جَلُودُهُمْ بِدُلَنَّاهُمْ جَلُودًا غَيْرَهَا لِيُنْوِقُوا عَذَابًا ﴾

ما زال يمكن أن يحدث لو أن الله سبحانه وتعالى لم يلفتنا إلى أنه
لما احترقت جلود أهل النار بدلهم غيرها . أكان من الممكن أن نعرف
كيف سيستمر عذاب أهل النار بلا توقف وأن احساسهم بالعذاب دائم؟!
الحقيقة العلمية تقول . إن الأعصاب موجودة تحت الجلد .. فإذا
احترق الجلد فلن يحس الإنسان بالألم . وهذا ما بينه لنا القرآن الكريم
عن كيفية استمرار العذاب .. كان الكفار العاصون سيقولون ستعذب فترة
قصيرة حتى تحرق جلودنا .. ثم بعد ذلك لا نحس بأى عذاب أو ألم ..
ولكان هذا تشجيعاً للإنسان على الاستهانة بعذاب الله في الآخرة .. لأنه
لن يستمر العذاب إلا لفترة قصيرة يحترق فيها الجلد وتموت تحته
الأعصاب وينتهي العذاب .. لوجد هناك تصادم بين القرآن الكريم
والحقائق العلمية .. في أن الكفار سيخلدون في عذاب جهنم .. وذلك في
قوله سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَلُدُونَ لَا يُفَتَّ عَنْهُمْ وَهُمْ

﴿ فِيهِ مُتَلِّسُونَ ﴾ ٧٥

(الآياتان ٧٤ و ٧٥ من سورة الزخرف)

ولا يفتر معناها لا يخفف .. فكيف يقول الله سبحانه وتعالى : إن أهل
جهنم سيخلدون في العذاب .. وأنه لن يخفف عنهم .. مع أنهم إذا

احتقرت جلودهم فقدوا الإحساس بالعذاب والآلم .. ومن الذي أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة العلمية حول الإحساس بالآلم .. وهذا ما لم يعرفه البشر إلا حديثا .. ألا يكفي هذا كدليل مادي على أن القرآن الكريم من عند الله ؟ .. ألا يكفي هذا أيضا كدليل مادي .. على أن الذي خلق هو الذي قال ؟ .. وإذا كان هذا قد دفع عالما من أكبر علماء علم التشريع وهو العارف بأسرار هذا العلم .. أن يعلن إسلامه أمام الناس في مؤتمر عام .. وقد بهره الإعجاز الإلهي ووجد بين يديه الدليل المادي على وجود الله فنطقت بالشهادتين .. ألا يكفي هذا ليؤمن العالم كله ويؤمن أهل الأرض جميعا ؟

الأصل الواحد للكون

ونحن نكتفى بهذا الجزء بالنسبة للإنسان .. ذلك أننا نريد أن نتحدث عن آيات أخرى في الكون بالنسبة لغير الإنسان .. بالنسبة للكون نفسه .. والأصل الواحد للكون ..

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا تَقَاءُفَتَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الآية ٢٠ من سورة الأنبياء)

لقد عرض معنى هذه الآية في مؤتمر الإعجاز القراءى في السعودية على الدكتور الفريد كرونر ، وهو من أشهر علماء العالم في الچيولوجيا .. وعندما قرأ المعنى أخذ يصبح : مستحيل .. مستحيل أن تكون هذه

الحقائق قد ذكرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنا . إننا لم نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات .. وباستخدام وسائل علمية متقدمة جداً وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النوعية . والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعين سنة .. ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعين سنة .

ولعلنا جميعاً ما زلنا نذكر تجربة صعود الإنسان إلى القمر .. وكيف كان العلماء يحلمون قبل إتمام هذه التجربة بالعناصر النادرة التي سيجدونها على سطح القمر .. وبالمواد التي سيحضرونها .. وكيف أنه سيكون فيها مواد تشفىً أمراضًا لا يوجد لها دواء على الأرض .. ومواد إذا أضيفت لعناصر الأرض تتجت عنها عناصر جديدة لم تعرفها البشرية وأخذت أحلامهم تزداد بما يضيفونه إلى الكرة الأرضية من عناصر غير موجودة .. واشتد الخيال وامتلأت الرؤوس بالآلام .

وجدوا على القمر إِلَه إِلَّا اللَّهُ

ثم ماذا حدث؟ .. صعد الإنسان إلى القمر ومشى فوق سطحه .. وجاء بعينات من الصخور التي على السطح . ومن الصخور الموجودة تحت السطح وعادوا بها إلى الأرض . وإذا بهم يكتشفون أن سطح القمر مكون من نفس عناصر سطح الأرض ، وأن صخور القمر في تركيباتها هي نفس صخور الأرض وأنهما من أصل واحد ! .

ألم يكن هذا كافياً كدليل مادي قوى لكي يؤمنوا؟ .. ألم يكن إثبات نظرية الأصل الواحد للسموات والأرض .. الذي أخبرنا الله به سبحانه

وتعالى فى القرآن الكريم .. منذ أكثر من ألف وأربعين سنة دليلاً كافياً على وجود الله .. وعلى أنه الخالق ؟ .. إن العالم الذى قال : إن الوسائل العلمية الحديثة الآن فى وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعين سنة ، وهو البروفيسور ألفريد كرونر . عالم مراوغ جداً .. حتى إنه كان يحاول أن يتهرب من الإحاجة لكيلاً يشهد بأن هذا العلم قد أنزل من الله سبحانه وتعالى حتى أنه فى كل ما قاله كان يقول : (إن ما قاله محمد) فقالوا له سنتحت لك أن محمداً لم يكن ينطق إلا بوحى من الله .. وأنه فى عدد من الأحاديث النبوية إعجاز نرجو أن تفسره لنا ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو هريرة وجاء في البخاري ومسلم .. روى حديثاً يقول في جزء منه : لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً) .. أى مزارع وبساتين وأنهاراً .. ولما سئل الدكتور كروزير هل كانت أرض العرب بساتين وأنهاراً كما روى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . نعم .. فقيل له متى كان ذلك ؟ .. قال في العصر الجليدي الأول الذي مر به العالم في عصبة الأولى ..

وستل كرونر من الذى أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه
الحقيقة .. قال ر بما علم ذلك من الرومان الذين كانوا متقدمين فى هذه
العلوم .. فسألوه هل تعود بلاد العرب بساتين وأنهارا مرة أخرى ؟ .. قال
نعم هذه حقيقة علمية .. قالوا كيف تقول على شيء سيقع فى المستقبل أنه
حقيقة علمية .. قال لأن العصر الجليدى الثانى بدأ .. ومن مقدماته ذلك
الشتاء القارس والعواصف الثلجية التى بدأت تزحف على أوروبا فى
السنوات الأخيرة وكل شتاء سيأتى سيكون أقسى من الذى قبله ، فكتلة

الجليد في القطب الشمالي بدأت تزحف ببطء نحو الجنوب .. وهي في كل عام تقترب .. ولكن ببطء جداً من المنطقة التي فيها بلاد العرب .. عندما يزداد هذا الاقتراب بعد فترة طويلة من منطقة بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً .

والعجب أنه حدث أن غمرت الثلوج بعض أراضي السعودية لأول مرة منذ قرون طويلة .. وصلت درجة الحرارة في بعض هذه المناطق إلى عدة درجات تحت الصفر .

وعندما سئل الدكتور كروزير : هل الرومان هم الذين أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً ؟ .. قال : لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بمحنة من السماء .

إعجاز .. يقتلوه إعجاز

نعود إلى الآية الكريمة : **﴿أَوْلَمْ يَرَ النَّاسُ كُفَّارًا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رِتْقًا فَفَتَّقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَفْلَأْ يَرْمَنُونَ﴾**
في هذه الآية أعطانا الله سراً من أسرار الحياة وهو الماء .

ولقد أصبح هذا حقيقة علمية يعترف بها العالم أجمع .. فالصور الحديثة التي تلتقط بالأقمار الصناعية وسفن الفضاء والكواكب القريبة من الأرض .. يستطيع العلماء أن يتبنّوا إذا كان في هذه الكواكب حياة أم لا رغم أن هذه الصور لا تأتي بالتفاصيل الدقيقة التي تبين إذا كانت هناك مخلوقات موجودة على سطح هذه الكوكب أم لا ..

ولكن مجرد علمهم بأن الصور لا تدل على وجود الماء على سطح الكواكب فإنهم يؤكدون أنه لا حياة فيه .. فإذا كان هناك ما يشير إلى أن

الماء موجود تحدثوا عن احتمالات الحياة .. وعملية وجود الماء هي من قدرة الله سبحانه وتعالى التي احتفظ بها لنفسه .. وهي عندنا في الأرض تتم دون عمل من الإنسان .. بل هي عطاء من الله.. بخار الماء يصعد من المحيطات والبحار .. ويكتفى في طبقات الجو العليا وينزل مطرا .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَءِ يَسِّعُ الْمَاءَ الَّذِي تَسْرِيْونَ ٦٨ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُرْبَزِ أَمْ نَحْنُ ۝ ﴾

﴿ الْمُرْبَزُونَ ٦٩ لَوْنَشَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشَكَّرُونَ ۝ ﴾

(الآيات من ٦٧ - ٦٩ من سورة الواقعة)

إذن الماء هو رزق من السماء بقدرة الله.. وكل من يدعى غير ذلك نطالبه أن ينشيء لنا نهرا صغيرا وسط الصحراء .. ويملاه بالماء إن كان يستطيع .. وإن يستطيع .. ولكن اعتراف العلم ويقينه من أن وجود الماء معناه وجود الحياة .. لم يلتفت لهم إلى ما ذكره القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا .. وكان يجب أن يلتفتوا إلى هذا الإعجاز .. فيؤمنوا بالله خالقا موجودا وإلها واحدا .. ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَفَلَا يَؤْمِنُونَ ۝ ﴾

السماء والدخان وأصل الخلق

لقد قدم لهم الدليل المادى في الأصل الواحد للسموات والأرض .. ومن أن الماء هو سر الحياة .. فإن لم يؤمنوا ، حينئذ يكون عدم إيمانهم مكابرة وعندنا .. ويكون عذابهم في جهنم عدلا من الله .. الذي أعطاهم الدليل ثلو الدليل .. ومع ذلك لا يؤمنون .

و قبل أن نترك السماء وأياتها .. لابد أن تتحدث عن الإعجاز في خلق السموات والأرض .. نحن ننظر إلى السماء ونرى أشياء وتغييب عنا أشياء

مثلاً عندما عرض معنى الآية الكريمة :

﴿فَمَنْ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ أَتَيْتَ أَطْوَعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَا أَنْتَنَا طَلَابُ عِنْدَنَ ﴾١١﴾

(الآية ١١ من سورة فصلت)

قرأ البروفيسور يوشيدى كوزاى مدير مرصد طوكىو هذا الكلام وقال: إن العلم لم يصل إلا منذ فترة بسيطة جداً إلى أن السماء كانت دخاناً وقد أصبح هذا شيئاً مشهوداً ومرئياً الآن . بعد إطلاق سفن الفضاء والاقمار الصناعية وعرض صور التقطت لنجم في السماء وهو يتكون .. وقد بدا كتلة من الدخان في وسطها تكون الجزء المضيء من النجم وحوله الدخان وتحيط بالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة ..

وقال : لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضباباً ولكننا عرفنا الآن بعد التقدم العلمي بأنها ليست ضباباً ولكنها دخان .. لأن الضباب خامد وبارد .. والدخان حار وفيه حركة .. وهذا يدل على أن السماء كانت دخاناً .. وقال إننى متاثر جداً باكتشاف هذه الحقيقة في القرآن .

الحديث نزل من السماء

وإذا كنا نريد أن نمضى في التفاصيل .. ليقتنع من لم يقتنع .. فابننا نستعرض بسرعة بعض ما قاله أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .. الدكتور استروخ وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء .. قال : لقد أجرينا أبحاثاً كثيرة على معادن الأرض

وأبحاثاً معملية .. ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلماء هو الحديد .. قدرات الحديد لها تكوين مميز .. إن الالكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحدد فهى محتاجة إلى طاقة مائة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية .. ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض .. ولابد أنه عنصر غريب وفدى إلى الأرض ولم يتكون فيها .. فلما ترجموا له معنى الآية الكريمة :

﴿ وَأَرْزَلْنَا الْحَدَيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَفِعٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ من سورة العنكبوت)

قال : ان هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام بشر .

فإذا تركنا السماء وأسرارها ونزلنا إلى أعماق البحار وجدنا شيئاً عجيباً .. إن الصور الحديثة التي التقطت للبحار قد أثبتت أن بحار الدنيا ليست موحدة التكوين .. بل هي تختلف في الحرارة والملوحة والكتافة ونسبة الأكسجين .. وفي صورة التقطت بالأقمار الصناعية .. ظهر كل بحر بلون مختلف عن البحر الآخر .. فبعضها أزرق قاتم، وبعضها أسود وبعضها أصفر .. وذلك بسبب اختلاف درجات الحرارة في كل بحر عن الآخر .. وقد التقطت هذه الصورة بالخاصية الحرارية .. وبالاقمار الصناعية ومن سفن الفضاء .. وظهر خط أبيض رفيع يفصل بين كل بحر وأخر .. فإذا قرأت الآية الكريمة :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَتَبَرَّزُ لَا يَتَغْيَبُ ﴾

(الآياتان ١٩ و ٢٠ من سورة الرحمن)

نجد أن وسائل العلم الحديثة قد وصلت إلى تصوير البرزخ بين البحرين .. وبيّنت معنى « لا يغيبان » .. بأن مياه أي بحر حين تدخل إلى

البحر الآخر عن طريق البرزخ .. فإنها تأخذ وقت دخولها خصائص البحر الذي تدخل فيه .. فلا تبقي مياه بحر على مياه بحر آخر فتغيرها .

موج .. من فوقه موج

ويناتي البروفيسور نورجاروا أستاذ علم چيولوجيا البحار ليعطينا ما
وصل إليه العلم في قوله تعالى :

﴿أَوْ كُظْلَمَتِ فِي بَحْرٍ لَّجِيْ يَغْسِلُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظَلَمَتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُلُهُ يَكْدُلُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾

(الآية ٤٠ من سورة التور)

فيقول لقد كان الإنسان في الماضي لا يستطيع أن يغوص بلوبي
استخدام الآلات أكثر من عشرين مترا .. ولكننا نغوص الآن في أعماق
البحار بواسطة المعدات الحديثة .. فنجد ظلاما شديدا على عمق مائة مترا ..

الآية الكريمة تقول : (بحر لجى) .. كما أعطتنا اكتشافات أعمق
الحار صورة ملئنا قوله تعالى : (ظلمات بعضها فوق بعض) ..

فالمعروف أن ألوان الطيف سبعة .. منها الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والبرتقالي إلى آخره .. فإذا غصنا في أعماق البحر تختفي هذه الألوان واحداً بعد الآخر .. واختفاء كل لون يعطى ظلمة .

فالاحمر يختفي أولاً ثم البرتقالي ثم الأصفر .. وأخر الألوان اختفاء هو اللون الأزرق على عمق مائتي متر .. كل لون يختفي يعطى جزءاً من الظلمة حتى تصل إلى الظلمة الكاملة .. أما قوله تعالى :

﴿موج من فوقه موج﴾ .. فقد ثبت علمياً أن هناك فاصلة بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوي .. وأن هذا الفاصل مليء بالأمواج .. فكأن هناك أمواجاً على حافة الجزء العميق المظلم من البحر وهذه لا نراها وهناك أمواج على سطح البحر وهذه نراها .. فكأنها موج من فوقه موج .. وهذه حقيقة علمية مؤكدـة .

ولذلك قال البروفيسور بورجـارـوا عن هذه الآيات القرآنية : إن هذا لا يمكن أن يكون علماً بشرياً .

الجـبـال .. وـالـوـتـاد

وإذا كانت العلوم الحديثة أكدت أن للجبال جذوراً عميقـة في الأرض .. وهو ما لم يكن معروـفاً .. فـفي كل الخرائط الجغرافية تـظـهـرـ الجـبـالـ بلا جذـورـ مـمـتدـةـ دـاـخـلـ الـأـرـضـ .. وـلـكـنـ الصـورـ الـأـخـيـرـةـ التـيـ التـقـطـتـ لـلـجـبـالـ .. ظـهـرـ فـيـهاـ أـنـ لـكـلـ جـبـالـ وـتـادـ يـقـوـيـهـ يـسـمـيـهـ الـعـلـمـاءـ جـذـراـ .. وـأـنـ هـذـاـ الجـذـرـ يـمـتدـ إـلـىـ أـعـمـاقـ بـعـيـدةـ .. وـهـكـذـاـ ظـهـرـ إـعـجـازـ الـأـيـةـ الـكـرـيمـةـ :

﴿وَالَّذِي نَجَعَلُ الْأَرْضَ مِهْدَاءً ٦١ وَالْجَبَالَ أَوْتَادَ ٦٢﴾

ثم جاءت حقيقة أخرى في قوله تعالى :

﴿الَّذِي غَلَّتِ الرُّؤُمُ فِي أَذْنِ الْأَرْضِ﴾

(الآية ١١١ من الآية الثانية من سورة الرعد)

وقد فسرت أذني على أساس أنها قربة من أرض العرب .. فقد حدثت المعركة قرب بيت المقدس .. وجاءت الخرائط الجيولوجية التي صورت أخيراً بالأقمار الصناعية .. لتبين أن المنطقة التي دارت فيها المعركة هي أكثر الأماكن انخفاضاً على سطح الأرض .. لأن أذني تعني المكان المنخفض .

لقد أورينا عدداً من الأبحاث التي تمت في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .. والتي شارك فيها عدد من أكبر علماء العالم في مختلف فروع العلم من غير المؤمنين .. والذين شهدوا جمِيعاً أن الآيات القرآنية التي قرنت عليهم معانٍ لها .. لا يمكن أن تكون إلا من وحي إلهي .. ومن خالق لهذا الكون .. نقول للناس جمِيعاً : يكفي أن كل ما قلنا كأدلة علمية على وجود الله .. كلها جاءت من أفواه الذين لا يؤمنون .. ورفضوا الإيمان حتى بعد أن سمعوا هذا الإعجاز القرآني ..

إن كل ما أورينا له ليس مجال بحث ولكنه قائم على المشاهدة والرؤية .. وعلى صور عرضت وقدمت .. ولم يكن الذين قدموا هذه الصور يهمهم إثبات معجزات وأيات القرآن الكريم .. بل إن معظمهم كان يقول : إذا جاء العلم فليتراجع الدين .. وبعضهم عارض في أول الأمر في الاشتراك في حوار يدخل فيه الدين .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد استخدم غير المؤمنين في إثبات قضية الإيمان .. فلابد أن نعلم أن المؤمن والكافر .. كليهما يخدم قضية الإيمان في الكون .

الفصل السادس:

وَنِعْمَةُ الْكُلُّ سُبْحَانَ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الله سبحانه وتعالى جعل
القرآن معجزة باقية إلى يوم
القيامة .. ولذلك وضع فيه
الدليل تلو الدليل على
ما يتحدى به غير المؤمنين
ليرد على ادعائهم .. ولقد
قبيل إن عصر المعجزات
انتهى .. ولكن معجزات
القرآن لا تنتهي حتى تقوم
الساعة .. ومعانى الآيات لا
تتضخم في عصر واحد

بل كل عصر نصل إلى معنى لم نكن قد وصلنا إليه .. والقرآن معجزة ومنهج . المنهج وهو مارسمه الله لنا كطريق للعبادة والحياة تم تفسيره وبيانه كاملاً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فالعبادات والمعاملات وغيرها فيما يتصل بافعال ولا تفعل .. بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالصلوات المفروضة فيه مثلاً خمس لا تزيد ولا تنقص إلى يوم القيمة وكذلك الأحكام وكل ما يتعلق بمنهج السماء .. كلها أشياء حسمت وبيّنت تماماً .. ولكن المعجزة في القرآن الكريم هي التي بقيت لتعطى كل جيل معنى إعجازياً لم يصل إليه الجيل الذي قبله.

ولو أن معجزة القرآن توقفت عند النزول لحمد القرآن فلم يعد يعطى شيئاً جديداً .. ولكن لأن هذا الكتاب معجزة باقية متتجدة .. فهو يعطى لكل جيل عطاءً جديداً .. وهذا نجد في كل عصر عطاءً للقرآن لم يكن موجوداً في العصر الذي قبله.

فإذا قرأتنا مثلاً الآية الكريمة:

﴿عَلِيَّ الْرُّومُ ﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴿ۚ﴾

(الآية الثانية من سورة الروم)

وجدنا أن عطاءً **﴿أَدْنَى﴾** حين نزل القرآن كانت - كما قلنا - بمعنى المكان القريب لأرض العرب .. ولا تقدم العلم واستطاع الإنسان أن يصوّر سطح الأرض بالأقمار الصناعية .. وجد أن مكان المعركة بين الروم والفرس هو أكثر الأماكن انخفاضاً على سطح الأرض .. وإذا قرأتنا الآية الكريمة:

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدْوَةِ الْدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدْوَةِ الْفُصُوْلِ وَالرَّكْبُ
أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة الأنفال)

نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد ثلاثة مواقع .. موقع المؤمنين وهم قربون إلى المدينة المنورة .. وموقع الكفار وهم بعيدون عن مكة المكرمة .. أى أن المؤمنين أقرب إلى مدينتهم وأهلهم .. والكافر بعيدون عن مدينتهم وأهلهم .. ثم قال تعالى : **﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾**

والرَّكْبُ هو قافلة أبو سفيان التي أفلتت من المؤمنين ..
والمعروف أن أبي سيفان لكي يفلت بقافلته من المؤمنين غير مساره واتخذ طريق الساحل .. وهنا يجب أن نلتفت إلى قوله تعالى :

﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾

أى موقع منخفض عنكم.

والمعروف أن ساحل البحر هو أكثر الأماكن انخفاضاً في الأرض .. ولذلك تفاص كل الارتفاعات بسطح البحر .. فيقال : هذا المكان يعلو ألف متر مثلاً عن سطح البحر أو مائة متر أو غير ذلك.

إذن فسطح البحر المقياس الذي اتخذه العالم كله ليساوي صفرأً في الارتفاع .. تفاص عليه كل الارتفاعات في الدنيا .. ولذلك قوله تعالى : **﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾** .. يلفتنا إلى هذه الحقيقة .. ولكن القرآن الكريم لم يكتف ببيان يبين هذا .. بل بين لنا أن هناك بقعة على سطح الأرض هي أكثر البقع انخفاضاً على سطحها .. وهي التي دارت فيها المعركة بين الروم والفرس.

أصل العلم من الله

وإذا قرأنا القرآن الكريم .. نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد لفتنا إلى مصدر العلم للبشرية كلها .. فقال سبحانه وتعالى:

وَعَلَمَ إِدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمُلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْشُوْنِي بِاسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(من الآية ٢١ من سورة البقرة)

وهكذا حدد القرآن الكريم في إعجاز مذهل مدخل العلم إلى البشر .. فانت حين تريد أن تعلم طفلك عندما يبدأ يميز الأشياء .. لا بد أن تعلمه الأسماء أولا .. فتقول له : هذا كوب وهذا قلم وهذا كرسي .. وهذا طعام إلى آخر ذلك ..

ونحن إذا لم نعلم الطفل هذه الأسماء فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئاً ولكنه إذا تعلم الأسماء أصبح بعد ذلك قادراً على استيعاب العلم .. ولذلك ففي الدنيا كلها وبالنسبة للبشرية كلها .. لا بد أن نبدأ بأن نعلم أطفالنا أسماء الأشياء .. ثم بعد ذلك تختلف نظم التعليم من دولة إلى أخرى ومن طريقة إلى أخرى .. ولكنها كلها لا بد أن تبدأ بتعليم الأسماء .. وهكذا نعرف أن بداية العلم من الله سبحانه وتعالى.

فقد بدأ الحق جل جلاله بتعليم الإنسان الأسماء .. وما زالت هذه البداية موجودة حتى الآن في كل نظم التعليم .. الأسماء أولا .. فإذا تعلم الطفل الأسماء بدأ يستوعب أي شيء آخر .. ونحن لا نعلم الطفل الأسماء في المدرسة فقط ..

ولكن هذا هو علم الفطرة .. تبدؤه الأم مع طفلها قبل أن يذهب إلى المدرسة .. والأم المتعلمة وتلك التي لم تزل حظاً من التعليم .. كلتاها تبدأ بتعليم ابنها الأسماء .. لأن علم الفطرة تكون منه البداية دائمًا .. ثم بعد ذلك يتتطور ويتبدل .. ولا يمكن أن يتم التفاهم بين الأم وطفلها ولا بين طفل وطفل آخر إلا إذا تعلماً الأسماء أولاً .. والعلم في الدول المتقدمة والدول المختلفة لابد أن يبدأ بالأسماء باعتبارها أساس التفاهم في الحياة ولكن هناك إعجازاً آخر بالعلم البشري .. لابد أن نلتفت إليه .. وهو يحمل إلينا الدليل اللغوي على وجود الله.

اللغة .. تدل على الوجود

فاللغة هي أساس التفاهم بين البشر .. واللغة ليست بيئة ولا حضارة ولا جنساً ولا لوناً .. ولكنها تعتمد أساساً على السمع .. فإذا سمع الإنسان تكلم ، وإذا لم يسمع لا يتكلم .. ولذلك تجد دائماً أن الأصم الذي لا يسمع أبكم لا ينطق .. فيقال دائماً : الصم والبكم .. لأن أساس الكلام هو السمع ..

ولكي نفهم هذه الحقيقة جيداً وهي أن اللغة لا علاقة لها إلا بالسمع .. نقول : إننا إذا أتينا بطفل عربي وأخذناه بعد ولادته إلى بريطانيا مثلاً .. بحيث لا يسمع إلا اللغة الإنجليزية .. نجد أن هذا الطفل يتكلم الإنجليزية فإذا حاولت أن تتحدث معه باللغة العربية فإنه لا يفهمك .. مع أنه عربي الأصل .. من أب وأم عربين .. ولكنه لا يستطيع أن ينطق حرفاً واحداً من اللغة العربية لأنه لم يسمعها .. فإذا جئنا بطفل إنجليزي وأخذناه إلى

بلاد العرب فإنه سينشأ وهو يتكلم اللغة العربية .. ولا يعرف حرفاً من الإنجليزية .. مع أنه من أصل إنجليزي .. وإذا أتينا بطفل إفريقي وكررنا معه نفس التجربة فسنحصل على نفس النتيجة .. إذن فاللغة لا علاقة لها بالأصل ولا باللون ولا بآني شيء آخر غير السمع ..

وأدَم حين خلقه الله وخلق حواء .. لابد أنه كان بينهما طريقة للتتفاهم ..
وإلا كيف تفاصلا ..؟

لا بد أنه كان بينهما لغة ما تفاصلا بها .. ثم جاء أولاد آدم فكان بين آدم وحواء وأولادهما لغة للتتفاهم سجلها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قوله سبحانه :

﴿ وَأَتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ أَبْنَيَءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا مُنْقَبِلَ مِنْ أَهْدِهِمَا وَلَمْ يُنَقِّبَلْ مِنَ الْأَخْرِ قَالَ لَا قَتَلْنَاكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَقَبِّلِينَ ﴾
(آلية ٢٧ من سورة المائدة)

إذن الثابت يقيناً من القرآن الكريم أنه كانت هناك وسيلة للكلام بين آدم وأولاده .. وإذا كنا قد أثبتنا بالدليل المادي أن الإنسان لا يمكن أن يتكلم إلا إذا كان قد سمع .. وأن اللغة أساسها السمع .. فلابد أن آدم قد سمع حتى يستطيع أن يتكلم .. فإذا قال لنا الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِلْمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ﴾.

إذن فلابد أن يكون آدم قد سمع الأسماء من الله سبحانه وتعالى ، وبما أن السمع هو وسيلة النطق بالكلام .. فكأن سمع آدم للأسماء من الله هو الذي علمه الكلام .. بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال :

وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
 فَقَالَ أَنِّي عُوْنَىٰ بِالْأَسْمَاءِ هَذِهِ إِنْ كُنْتُمْ مَعْذِلِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا
 سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْمُحْكِمُ
 ﴿٢٢﴾ قَالَ يَكَادُمُ أَنِّي شَهِمْ بِالْأَسْمَاءِ هُمْ فَلَمَّا أَنْبَأْتَهُمْ بِإِنْفَاقَهُمْ قَالَ
 أَنَّمَا أَقْلَلَ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
 يُبَدِّلُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُونُ ﴿٢٣﴾

(الآيات من ٢١ - ٢٣ من سورة البقرة)

أى أن آدم تكلم وأنبأ الملائكة بالأسماء التي علمها الله له .. وإذا كان آدم نطق وتكلم فلابد أنه سمع من الله سبحانه .. وحواء سمعت من آدم فتكلمت .. وأولاد آدم وحواء سمعوا منها فتكلموا.

الكلام من السماع

هناك بعض الناس يقول : إن الإنسان الأول لم يكن يتكلم ، وإنما كان يتفاهم بالإشارة ثم بعد ذلك تكلم .. وتقول : إن هذا غير صحيح .. لأن أى إنسان لكي يتكلم لابد أن يسمع أولا .. فممن سمع أول إنسان تكلم سواء كان آدم أو من بعده ؟ .. إن الكلام لا يأتي إلا بالسمع .. والذين يتفاهمون بالأشارات يظلون طوال حياتهم يتفاهمون بنفس الأسلوب .. إلا إذا سمعوا من غيرهم .. حينئذ تبدأ عندهم ملحة الكلام .. والصم والبكم الذين يعالجون من هذا الداء .. إذا لم يسمعوا فلن يتكلموا.

فإذا قال أحدهم إن البشر يتحدثون بلغات مختلفة ولهجات مختلفة .. نقول إن هذا دليل لنا وليس علينا أن اللغة مصدرها البينة .. وليس الجنس

أو اللون أو أى شئ آخر .. وإن الكلام ليس صفة وراثية تولد مع الإنسان ولكنها صفة سمعية فلابد من السمع أولاً.

وهكذا تعطينا القرآن كلها أن الله سبحانه وتعالى هو الذى علم البشرية الكلام بأن علم أدم الأسماء .. ولا يمكن أن تكون هناك بداية - علما ولا عقلاً - إلا هذه البداية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .

لُفْظُ الْجَلَالَةِ وَإِعْجَازُ التَّحْدِيدِ

وإذا كنا نريد أن نمضي في هذا الإعجاز فامامنا مجالات كثيرة .. لفظ الجلالة .. كلمة : « الله » سبحانه وتعالى .. من أين جاءت ؟ .. إن الثابت لغويًا أن المعنى لابد أن يوجد أولاً ثم يوجد اللُفْظُ أو الاسم .. فإذا لم يوجد المعنى لا يوجد اللُفْظُ في اللغة .. وكل الاختراضات الحديثة التي لم تكن البشرية تعرف عنها شيئاً لم توجد لها أسماء إلا بعد أن وجدت وعرفناها .. والإنسان لا يستطيع أن يفهم الكلام إلا إذا كان المعنى موجوداً في عقله .. ولذلك فإن الماجمِعُ اللغوي في العالم تضييف كل فقرة ألفاظاً لمعانٍ لم تكن موجودة ثم وجدت .. فكان لابد أن توجد لها ألفاظ تعبر عنها .

وعلى أية حال فإن العقل البشري يعجز عن فهم أى لفظ إذا لم يوجد في عقولنا المعنى أولاً .. حتى أنك إذا حدثت أى إنسان بلفظ لا يفهمه .. فلابد أن يعرف المعنى أولاً ثم بعد ذلك يفهم اللُفْظ .. ولكن الله سبحانه وتعالى غيب عنا .. لم يره أحد .. ومع ذلك فإن لفظ الجلالة موجود في كل لغات العالم .. والعقول كلها تفهمه .. فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟ إلا إذا كان في داخلنا الإيمان الفطري الذي يعرفنا معنى لفظ الجلالة .

وهنا تأتى الآية الكريمة لتبيّن لنا هذا الإعجاز فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَإِذَا خَذَرَبَكَ مِنْ بَيْنِ أَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِ ذُرَّتِهِمْ وَأَشَهَّهُمْ
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَسْتَرِكُمْ فَالْوَابِلُ شَهِدَنَا﴾

(الآية ١٨ من سورة آل عمران)

إذن فلابد أن الله قد أشهادنا على نفسه ، وعندما ذكر لفظ الجلالة فهمناه .. ولابد أنه سبحانه وتعالى أشهاد البشرية كلها .. لأنه لا توجد لغة في العالم ليس فيها لفظ الجلالة .. بل إن التحدى والإعجاز الإلهي يعنى أكثر من ذلك .. فيقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدُهُ وَاصْطَلِرِ لِعِنْدِهِ﴾

(الآية ٦٥ من سورة مریم)

وهكذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن لفظ الجلالة لن يطلق على أحد غير ذاته الكريمة .. وهكذا تحدى الله البشرية كلها في أمر اختياري .. فالاسم هو شيء من اختيار الإنسان .. ويوجد في هذا الكون الكفرة والملحون وشياطين الإنس وغيرهم .. فهل سمعت عن واحد سمي نفسه الله ؟ .. أو اسمى ابنه الله ؟ .. لم يحدث ولن يحدث .. لأن الحق سبحانه وتعالى اختص بهذا الاسم ذاته الكريمة .. فلا يمكن لبشر أن يتخطى مراد الله ليطلق لفظ الجلالة على نفسه أو أحد أولاده .. بل إن الذين ادعوا الألوهية مثل فرعون وغيره .. ونصبوا أنفسهم ألهة يعبدون من دون الله .. لم يجرؤ واحد منهم ولم يخطر على باله أن يسمى نفسه الله ..

وهكذا جاء التحدى للبشر جمعياً في أمر اختياري ليؤكد للدنيا كلها . أن أحداً لا يستطيع أن يخالف مرادات الله في كونه .. ولو كانت هذه المخالفة في منطقة الاختيار للإنسان ، ولو كانت هذه المخالفة من ملحد محارب لدين الله يريد الأضلال في الأرض .. أيوجد دليل مادي أكبر من هذا ؟

التعداد دليل مع القرآن

فإذا تركنا الأدلة اللغوية فإننا نجد هناك دليلاً إحصائياً على وجود الحق سبحانه وتعالى .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَأَيُّهَا أَنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَرَّةٍ وَأَنْشَأَنَاكُمْ شُعُورًا وَأَقْبَلَتِ الْتَّعَارُوفُ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ كُمْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(الآية ١٣ من سورة العجارات)

الحق سبحانه وتعالى يخبرنا أنَّ الخلق بدأ من ذكر وأنثى وهم أدم وحواء .. ثم جاء منها كلُّ هذا الخلق الذي نراه .. الدليل الإيماني على ذلك أنَّ الله هو الذي قال .. والدليل المادي على ذلك هو أنَّ علم الاحصاء يقول ذلك .. فإذا تتبعنا البشر في الكون نجد أنَّ تعداد الناس في العالم اليوم يصل إلى كذا بليون نسمة .

فإذا فرضنا مثلاً أنَّ تعداد سكان العالم اليوم خمسة آلاف مليون .. فكم كان عدد سكان العالم منذ قرن مضى ؟ .. سنجد أنَّ تعدادهم كان أقل .. مثلاً أربعة آلاف مليون ومنذ ثلاثة قرون مثلاً كم كان عدد سكان العالم ؟ طبعاً كانوا أقل .

ومنذ عشرين قرناً من الزمان كم كان عدد سكان العالم ؟ .. نقول إنهم كانوا بضعة ملايين .. ومنذ ثلاثين قرناً من الزمان كم كان عدد سكان العالم ؟ .. نقول كانوا مليونين أو ثلاثة .. إذاً كلما عدنا بالزمان إلى الوراء نجد أن عدد البشرية يتناقص .. وكلما تقدمنا بالزمان نجد أن عدد البشرية يتزايد .. أليست هذه حقيقة إحصائية ؟ ..

أيستطيع أحد من الماديين أو غير المؤمنين أن ينكر أنه كلما عدنا بالزمان إلى الوراء ، فإن عدد البشر يتناقص ؟ .. وإذا كانت هذه هي القاعدة المعترف بها .. فمعنى ذلك أنه كلما عدنا إلى الماضي تناقص عدد البشر .. ويظل عدد البشر يتناقص ويتناقص حتى نصل إلى نقطة البداية التي بدأت عندها حياة البشر .. فتكون هذه النقطة من ذكر وأثنى ..

إذن التناقص في عدد البشرية الذي عرفناه وسجلناه بالاحصاءات لا بد أن ينتهي إلى البداية التي بدأ منها تكاثر هذا الخلق وهذا الذكر والأثنى .. وكلما مر الزمن زادت أعداد البشر حتى وصلنا إلى تعداد العالم الآن.

فلو أن تعداد البشر كان يتناقص مع الزمن .. أى أن الدنيا بدأت بآلف مليون إنسان وانتهت في عصرنا هذا بمائة مليون .. لكان ذلك يؤكد لنا أنه من المستحيل أن تكون البشرية قد بدأت بذكر وأثنى .. لأن الدليل العلمي سيكون في هذه الحالة شاهداً على أن ذلك لا يمكن أن يحدث.

ولكن كون البشر يتزايد عددهم مع مرور الزمن ويتناقص عددهم كلما عدنا إلى الوراء في الماضي .. حتى أنه في العصور الأولى لم تكن إلا أجزاء صغيرة من الأرض يعيش فيها الناس .. والباقي لا يوجد فيه أحد فهذا يعطينا الدليل على أن البداية كانت من ذكر وأثنى.

معجزة جيش أبرهة

فإذا ذهبتنا إلى التاريخ فنحن نجد فيه الدليل المادي على وجود الله سبحانه وتعالى .. وعلى علمه وعلى معجزاته .. أتراكه تعالى في هذه السورة الكريمة .. سورة الفيل :

﴿أَلَّا يَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَّا يَرَى جَعْلَ كَيْدَهُ
فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طِيرًا أَبَا إِبْرَاهِيمَ تَرْمِيمٍ
يَحِجَّارًا فِي مِنْ سِجْنٍ ۚ إِنَّمَا يَعْصِي مَا كُوِلَمْ ۚ﴾

(سورة الفيل)

هذه معجزة لم يأت بها رسول .. ولم تنزل لتبين الإيمان على قوم نبي كان يدعوا قومه للإيمان وهم لا يؤمنون .. ولكنها حدثت لإثبات القدسية والحماية لبيت الله الحرام .

ولقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل .. وكانت هذه المعجزة علامة على أن دين الله الذي سينزل على هذا الرسول إذا تخلى عنه البشر جميعاً .. فإن الله جل جلاله سيسعده ويحفظه .

والقصة معروفة وبطلها ملك الحبشة في ذلك الوقت أبرهة .. الذي بنى بيته ليحج إلى الناس بدلاً من الكعبة .. وجاء بعض الأعراب وألقوا فيه قانورات ، فصمم أبرهة أن ينتقم بهدم الكعبة .. وأخذ جيشاً ضخماً وعددًا كبيرًا من الأفيال وذهب إلى مكة .. فلما رأى أهل مكة هذا الجيش هربوا وفروا .. فجاء الطير وألقى عليهم بحجارة من جهنم قضت على أبرهة وجيشه وأفياله في دقائق .

القصة يرفض تصدقها العقل غير المؤمن .. إذ كيف يمكن لطير صغير أن يقضى على جيش من الأفيال .. بينما لو وقفت مئات من الطير على جسد فيل واحد لا يحس بها .. ولقد توقف بعض العلماء عند هذه السورة الكريمة فقالوا: إن الله أرسل جراثيم لتقضى على أبرهة وجيشه .. وكأنهم يريدون أن يسهلا الأمر على الله !، مع أن الله على كل شيء قادر.. نقول : لقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل .. ويعود في الأربعين .. ونزلت هذه السورة في مكة في بداية الدعوة الإسلامية .. وكان الكفار هم القوة والعزة .. والمسلمون هم القلة والضعف .. وكان الكفار يبحثون عن أي شئ للطعن في الدين الإسلامي.

نقول : إن هذه السورة نزلت في مكة .. والرسول صلى الله عليه وسلم كلفه الله بالرسالة وعمره أربعون سنة .. أي أن هناك من أهل مكة من كان يبلغ الخامسة والخمسين والستين والخامسة والستين والسبعين وهم قد شهدوا هذه العجزة، ورأوها رؤية العين .. ولو أن الطير لم تأت وجيش أبرهة لم يتم إفناه في لحظات .. لقال هؤلاء الناس : إن هذا الكلام غير صحيح .. ولقد كنا موجودين في مكة في هذا الوقت ولم نر طيراً جاءت ولا جيشاً أفنى .. وطعنوا بذلك في الإسلام وفي القرآن وفي أنه كلام الله ولكن كون الطير جاء .. وكون العجزة تمت .. لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام أن يطعن فيه.

وهكذا يعطينا الحق سبحانه وتعالى دليلاً من التاريخ لعجزة مشهودة حدثت .. ويعطينا معها الدليل على صدق حدوثها .. فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرناه سابقاً عن قوله تعالى :

» ألم غلبت الرؤم في أنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبيون «

لوجدنا دليلاً تاريخياً آخر .. ثم يأتي بعد ذلك دليل ثالث يضيف إلى هذه الأدلة التاريخية.

شهادة التاريخ

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى عندما يذكر في القرآن الكريم شيئاً عن حاكم مصر في عصر موسى عليه السلام .. كان يسميه فرعون .. أو أن الذين حكموا مصر أطلق عليهم القرآن اسم الفراعنة .. فيقول تعالى :

﴿ قَالَ يَقُولُ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَرُ بَحْرٌ مِّنْ تَحْتِي أَفَلَا يُبَصِّرُونَ ﴾ ٥١

(الآية ٥١ من سورة الزخرف)

وهذا يتفق مع التاريخ في أن الذين حكموا مصر في العصور القديمة هم الفراعنة .. إذن حكام مصر القدماء فراعنة .. والقرآن سماهم فراعنة .. فإذا أتينا إلى سورة يوسف عليه السلام وجدنا أن الله سبحانه وتعالى، وهو يروى لنا في القرآن الكريم قصة يوسف في مصر .. لم يلقب حاكم مصر بفرعون .. بل لقبه بالملك فقال تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِيمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ ﴾

(الآية ٤٢ من سورة يوسف)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِيمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة يوسف)

إذن فثبتت من القرآن الكريم أن يوسف عاش في مصر .. وأنه خلال وجوده في مصر اختلف في القرآن الكريم اسم حاكم مصر .. فلم يكن

يلقب بفرعون .. بل لقب باسم الملك ويمضي الزمن ويكتشف حجر رشيد ثم تحل رموز اللغة المصرية القديمة .. ويثبت أن يوسف عليه السلام عاش في مصر في الفترة التي احتلها فيها الهكسوس .. وأن هؤلاء لم يكونوا من الفراعنة .. وأن حاكمهم كان يطلق عليه اسم الملك .. ولم يكن يطلق عليه اسم فرعون .. وأن المصريين طربوا الهكسوس .. وعاد الفراعنة إلى الحكم مرة أخرى.. من الذي أنبأ محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الحقائق التاريخية التي لم يعرفها العالم إلا في الفترة الأخيرة بعد اكتشاف حجر رشيد ؟! . وكيف علم أن يوسف كان في عهد الهكسوس.. وأن موسى كان في عهد الفراعنة..

وهكذا يأبى الحق سبحانه وتعالى إلا أن يعطينا الدليل المادي التاريخي على إعجاز هذا القرآن .. وعلى أن الله يعلم ما في الدنيا والآخرة .. وأنه بكل شيء عليم .. وحتى يظهر ذلك لعباده وبالدليل المادي جاء بحقيقة تاريخية لم يكن يعلمها أحد من البشر وقت نزول القرآن .. وذكرها في كتابه العزيز .. حتى إذا تقدم الزمن وكشف الله لخلقه ما شاء من علمه .. ظهرت لهم هذه الحقيقة لتكون عطاً وإعجازاً جديداً للقرآن الكريم .. في الوقت الذي تظهر فيه هذه الحقيقة وتخرج إلى علم البشر .. حتى تكون معجزة من معجزات القرآن يظهرها الله بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة.

على أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى من أسرار ملوكه ماشاء لمن يشاء وكشف عما شاء من علمه لمن شاء .. ولكنه احتفظ لنفسه بعلم بدء الحياة أو الخلق .. ويعوامل استمرار الحياة.. وبنهاية الحياة وهي الموت .. فمهما تقدم العلم وازدهر .. وكشف الله من أسرار كونه .. فإن الله هو الذي

يحيى ويميت .. وسيظل يحيى ويميت إلى أن تأتى الآخرة ويتم الحساب ..
وتقبض روح ملك الموت .. فلا يصبح هناك موت .. ولكن خلود .. إما في
الجنة وإما في النار.

الحياة .. والمؤثر من الله

تأمل قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الشعرا :

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَهُوَ بَهِدٌ ۝ وَالَّذِي هُوَ يَطْعَمُنَّ ۝ وَسَقَانَ ۝ وَإِذَا مَرِضَتُ
فَهُوَ شَفِيفٌ ۝ وَالَّذِي يُمْسِكُ ثُمَّ يُحِيٌّ ۝ ۸۱ ۷۸ ۷۹ ۸۰ ۸۱﴾

(الآيات من ٧٨ - ٨١ من سورة الشعرا)

ولذا أردنا أن نتأمل ما جاء في هذه الآيات - ونستعرض الإعجاز فيها
بإعجاز - نجد أن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى .. فهو وحده
الخالق .. والكل عاجز .. ولا أحد يستطيع أن يدعي أنه يقدر على خلق شيء
ولكن قضية الموت فيها جدل .. فإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ الَّذِي يُحِيٌّ ۝ وَيُمِيتُ ۝ قَالَ أَنَا أُحِيٌّ ۝ وَأُمِيتُ ۝ ۸۰﴾

(من الآية ٨٠ من سورة البقرة)

والآية تروي قصة الحوار بين من أتاه الله الملك وإبراهيم عليه السلام
فلما قال له إبراهيم : ربى يحيى ويميت .. أخذت من أتاه الله الملك العزة
فقال : أنا أحيى وأميت .. وجاء برجل من رعيته، فحكم عليه بالإعدام
وقال : هو ميت .. ثم عفا عنه وقال : أحييته .. نقول : إن الناس لا تتبه
للفرق بين القتل والموت .. فالقتل هو إفساد لجسد الإنسان يجعل الجسد
غير صالح لبقاء الروح فيه فتغادره ، ولكن الموت هو إخراج الروح من
الجسد دون هدم أو إفساد للجسد .. ولذلك فرق الله بين الاثنين في القرآن

الكريم فقال :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلَ أَفَإِنْ مَا تَأْذَنَ فَتَلَقَّبُتُمْ عَلَىٰ أَعْقَدِي كُمْ ﴾

(الآية ١٤١ من سورة آل عمران)

وقال جل جلاله :

﴿ وَلَيْنَ مُتْمِمٌ أَوْ فُتَّلَمْ لَإِلَىٰ اللَّهِ تُحْسَرُونَ ﴾

(الآية ١٥٨ من سورة آل عمران)

إذن الموت لله وحده ، هو الذي يحيي ، ولكن القتل - وهو غير الموت -
يمكن أن يتم على يد عباد الله .

ولأن الله هو الذي يحيي .. فلا أحد ينجو من الموت أبدا .. لأن أمر الله
نافذ على كل خلقه .. ولأن الإنسان يمكن أن يتم على يده القتل .. فنهاك
من ينجو من القتل مرة ومرات لأن أمر الإنسان غير نافذ في الكون ..
ثم تقول الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يَطْعَمُنِي وَلَا سَقِينِ ﴾ .

ويلاحظ في الآية الأولى أن الحق سبحانه وتعالى لم يستخدم أسلوب
التأكيد فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ ولم يقل هو الذي خلقني لأنه لا أحد
يُنَازِعُ اللَّهَ فِي الْخَلْقِ ولكن الطعام والشراب جعلهما الله أسباباً للإنسان ..
فجاء التأكيد هنا ليلفتنا إلى أن هذه الأسباب ليست هي الأصل .. وإنما
كل شيء من الله .. فالحبة في أي نبات خلقها الله سبحانه وتعالى ووضع
فيها خصائصها .. وخرن فيها الغذاء الذي يلزمها حتى تستطيع جذورها
أن تضرب في الأرض لتأخذ منها عناصر الحياة .. وهو الذي أعطاها
خصائصها .. وخلق لها الأرض التي تزرع فيها .. وأنت تضع الحبة في

الأرض فتظل تتغذى على المخزون فيها من الغذاء الذى وجد فيها بقدرة الله .. ثم بعد ذلك تمتض من عناصر الأرض مايلزمها فقط وترى الباقى ثم تظل تنمو وتنمو حتى تثمر بقدرة الله وليس بجهد بشر .. فكأن الطعام كله من الله سبحانه وتعالى .

والشراب أيضًا من الله

فإذا جئنا للشراب نجد أن كل ما يشربه الإنسان هو من الله سبحانه وتعالى .. فالماء ينزل من السماء عذباً سائغاً بقدرة الله .. واللبن نأخذه من الحيوان وهو مخلوق بقدرة الله .

ولقد حاول العلم أن يصنع اللبن فجاء باللبن الطبيعي وحله إلى عناصره .. ثم جاء بهذه العناصر وخلطها مع بعضها البعض بنفس النسب الموجودة في اللبن الطبيعي .. ثم جاء بعشرين فاراً سقى عشرة منها اللبن الطبيعي .. والعشرة الباقيه سقاها اللبن المصنوع من نفس عناصر اللبن الطبيعي .. فنمت الفئران التي سقيت اللبن الطبيعي وماتت الفئران التي أعطيت اللبن الصناعي .

ومازال العلم حتى الآن عاجزاً عن أن يصنع نقطة لبن واحدة .. بل إن بعض دول العالم التي تعانى نقصاً شديداً في اللبن . لا تستطيع أن تحل الأزمة .. فتحرم اللبن على الكبار ليكون متوفراً للأطفال .. ومنها الاتحاد السوفيتى والصين وكوريا الجنوبية وغيرها من دول العالم .. ومن الإعجاز الإلهى أن هذا اللبن تعطى لنا حيوانات يجري في عروقها الدم ... فلا يختلط اللبن والدم أبداً .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿تُشَقِّي كُرْمَةً فِي بُطْوِنِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمْرٍ بَنَاحَ الصَّاسَاتِ أَيْغَارَ اللَّثَّارِيْنَ﴾

(آلية ٦٦ من سورة النحل)

على أن العلم البشري كله عاجز حتى الآن عن أن يسقى الناس الماء أو اللبن.. فالإنسان الذي وصل إلى القمر عاجز عن أن يصنع ترعة صغيرة .. أو كوباً من اللبن .. أما باقي الإشياء الأخرى التي يشربها الإنسان فهي مما أوجدها فيها من ثمر يضاف إليها الماء أو لا يضاف.

الشفاء والمرض بين القدرة والطلب

فإذا جتنا إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَرْضَتْ فَهُوَ يُشْفِي﴾.

نجد أن هناك جدلاً كثيراً حول هذه الآية .. فالناس تقول إن الطبيب هو الذي يشفى .. ولكن الحقيقة هي أن الشفاء بيد الله وحده .. وأن الطبيب يعالج فقط .. وقد يأتي على يده الشفاء .. وقد يخطئ في العلاج فيكون على يده الموت.

والله سبحانه وتعالى جعل لكل داء أجيلاً في الشفاء .. ولذلك يحدث كثيراً أن طبيباً مبتدئاً يكتب الدواء الصحيح لمريض عرض نفسه على أكبر الأطباء فلم يعرفوا لدائه دواء وفي هذه الحالة قد يتعجب الناس ويقولون : إن هذا الطبيب حديث التخرج أعلم من أساندته . نقول لهم : هذا تفسير خاطئ . فالأستاذ قطعاً أعلم من تلميذه . وهو الذي علمه .. ولكن قدر الله سبحانه وتعالى بالشفاء جاء فكشف الله عن الداء لهذا الطبيب المبتدئ .. فكتب الدواء وتم الشفاء .

وليس معنى أن الله هو الشافي ألا نلتمس الوسيلة للعلاج . فنحن في هذه الدنيا أمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نأخذ بالأسباب .. ثم بعد ذلك نتوكل على الله في النتائج .

والأية الكريمة تقول بعد ذلك : **«والذى يعيتني ثم يحيين»** .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يستخدم أسلوب التأكيد فيقول : وهو الذي يعيتني ثم يحيين .. لأنه لا أحد يستطيع أن ينافس الله في الموت أو البعث .. فإذا جاء الموت فلا أحد يستطيع أن يتائب عليه .. أو يقول : لن أموت .. وإذا جاء البعث ، فالله وحده القادر على بعث الموتى .. وبذلك تكون قد أثبتنا بالدليل المادى أن بداية الحياة واستمرار الحياة ونهاية الحياة .. هي من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده .

وإذا كنا قد جئنا إلى نهاية هذا الكتاب .. فنرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون قد هدانا إلى ما يثبت الإيمان في القلوب .. وما يرد على أولئك الملحدين الذين يدعون أنه لا توجد أدلة مادية في الكون على وجود الله .. ونرجو من الحق جل جلاله أن يتقبل منا .. إنه هو السميع العليم .

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول : أسباب الوجود	٢
الفصل الثاني : وفي أنفسكم أفلات بتصرون	٢٥
الفصل الثالث : الدليل الغيبي	٤٧
الفصل الرابع : وفي الأرض آيات	٦٩
الفصل الخامس : الأدلة المادية	٩٣
الفصل السادس : وفي كل شئ دليل	١١٥